

يوميات نائب في الأرياف

توفيق الحكيم



توفيق الكبير

يومياتنا في الأرياف

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفيحاء

دار مصر للطباعة
سميد جودة السحار وشركاه

كتب للمؤلف نشرت باللغة العربية

- ١ — محمد صلى الله عليه وسلم (سيرة حوارية) ١٩٣٦
- ٢ — عودة الروح (رواية) ١٩٣٣
- ٣ — أهل الكهف (مسرحية) ١٩٣٣
- ٤ — شهر زاد (مسرحية) ١٩٣٤
- ٥ — يوميات نائب في الأرياف (رواية) ١٩٣٧
- ٦ — عصفور من الشرق (رواية) ١٩٣٨
- ٧ — تحت شمس الفكر (مقالات) ١٩٣٨
- ٨ — أشعب (رواية) ١٩٣٨
- ٩ — عهد الشيطان (قصص فلسفية) ١٩٣٨
- ١٠ — حمارى قال لى (مقالات) ١٩٣٨
- ١١ — براكسا أو مشكلة الحكم (مسرحية) ١٩٣٩
- ١٢ — راقصة المعبد (روايات قصيرة) ١٩٣٩
- ١٣ — نشيد الأنشاد (كما فى التوراة) ١٩٤٠
- ١٤ — حمار الحكيم (رواية) ١٩٤٠
- ١٥ — سلطان الظلام (قصص سياسية) ١٩٤١
- ١٦ — من البرج العاجى (مقالات قصيرة) ١٩٤١
- ١٧ — تحت المصباح الأخضر (مقالات) ١٩٤٢
- ١٨ — بجماليون (مسرحية) ١٩٤٢
- ١٩ — سليمان الحكيم (مسرحية) ١٩٤٣
- ٢٠ — زهرة العمر (سيرة ذاتية — رسائل) ١٩٤٣
- ٢١ — الرباط المقدس (رواية) ١٩٤٤

- ٢٢ — شجرة الحكم (صور سياسية) ١٩٤٥
- ٢٣ — الملك أوديب (مسرحية) ١٩٤٩
- ٢٤ — مسرح المجتمع (٢١ مسرحية) ١٩٥٠
- ٢٥ — فن الأدب (مقالات) ١٩٥٢
- ٢٦ — عدالة وفن (قصص) ١٩٥٣
- ٢٧ — أرني الله (قصص فلسفية) ١٩٥٣
- ٢٨ — عصا الحكيم (خطرات حوارية) ١٩٥٤
- ٢٩ — تأملات في السياسة (فكر) ١٩٥٤
- ٣٠ — الأيدي الناعمة (مسرحية) ١٩٥٩
- ٣١ — التعادلية (فكر) ١٩٥٥
- ٣٢ — إيزيس (مسرحية) ١٩٥٥
- ٣٣ — الصفقة (مسرحية) ١٩٥٦
- ٣٤ — المسرح المتنوع (٢١ مسرحية) ١٩٥٦
- ٣٥ — لعبة الموت (مسرحية) ١٩٥٧
- ٣٦ — أشواك السلام (مسرحية) ١٩٥٧
- ٣٧ — رحلة إلى الغد (مسرحية تنبؤية) ١٩٥٧
- ٣٨ — السلطان الحائر (مسرحية) ١٩٦٠
- ٣٩ — ياطالع الشجرة (مسرحية) ١٩٦٢
- ٤٠ — الطعام لكل فم (مسرحية) ١٩٦٣
- ٤١ — رحلة الربيع والخريف (شعر) ١٩٦٤
- ٤٢ — سجن العمر (سيرة ذاتية) ١٩٦٤
- ٤٣ — شمس النهار (مسرحية) ١٩٦٥

- ٤٤ — مصير صرصار (مسرحية) ١٩٦٦
٤٥ — الورطة (مسرحية) ١٩٦٦
٤٦ — ليلة الزفاف (قصص قصيرة) ١٩٦٦
٤٧ — قالبنا المسرحي (دراسة) ١٩٦٧
٤٨ — بنك القلق (رواية مسرحية) ١٩٦٧
٤٩ — مجلس العدل (مسرحيات قصيرة) ١٩٧٢
٥٠ — رحلة بين عصرين (ذكريات) ١٩٧٢
٥١ — حديث مع الكوكب (حوار فلسفي) ١٩٧٤
٥٢ — الدنيا رواية هزلية (مسرحية) ١٩٧٤
٥٣ — عودة الوعي (ذكريات سياسية) ١٩٧٤
٥٤ — في طريق عودة الوعي (ذكريات سياسية) ١٩٧٥
٥٥ — الحمير (مسرحية) ١٩٧٥
٥٦ — ثورة الشباب (مقالات) ١٩٧٥
٥٧ — بين الفكر والفن (مقالات) ١٩٧٦
٥٨ — أدب الحياة (مقالات) ١٩٧٦
٥٩ — مختار تفسير القرطبي (مختار التفسير) ١٩٧٧
٦٠ — تحديات سنة ٢٠٠٠ (مقالات) ١٩٨٠
٦١ — ملامح داخلية (حوار مع المؤلف) ١٩٨٢
٦٢ — التعاقدية مع الإسلام والتعاقدية (فكر فلسفي) ١٩٨٣
٦٣ — الأحاديث الأربعة (فكر ديني) ١٩٨٣
٦٤ — مصر بين عهدين (ذكريات) ١٩٨٣
٦٥ — شجرة الحكم السياسي (١٩١٩ — ١٩٧٩) ١٩٨٥

كتب للمؤلف نشرت في لغة أجنبية

شهر زاد : ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت
عضو الأكاديمية الفرنسية في دار نشر (نوفيل أديسيون لاتين) وترجم إلى
الإنجليزية في دار النشر (بيلوت) بلندن ثم في دار النشر (كروان)
بنيويورك في عام ١٩٤٥ . وبأمريكا دار نشر (ثرى كنتنتزا بريس)
واشنطن ١٩٨١ .

عودة الروح : ترجم ونشر بالروسية في ليننجراد عام ١٩٢٥
وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧ في دار (فاسكيل) للنشر وبالإنجليزية
في واشنطن ١٩٨٤ .

يوميات نائب في الأرياف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩
(طبعة أولى) وفي عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وفي عام ١٩٧٤ و ١٩٧٨
(طبعة ثالثة ورابعة وخامسة بدار بلون بباريس) وترجم ونشر بالعبرية
عام ١٩٤٥ وترجم ونشر باللغة الإنجليزية في دار (هارفيل) للنشر بلندن
عام ١٩٤٧ — ترجمة أبا إيبان — ترجم إلى الأسبانية في مدريد عام ١٩٤٨
وترجم ونشر في السويد عام ١٩٥٥ ، وترجم ونشر بالألمانية عام ١٩٦١
وبالرومانية عام ١٩٦٢ وبالروسية عام ١٩٦١ .

أهل الكهف : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخي
لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دي فرانس ثم ترجم إلى الإيطالية بروما
عام ١٩٤٥ وبميلانو عام ١٩٦٢ وبالأسبانية في مدريد عام ١٩٤٦ .
عصفور من الشرق : ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٦ طبعة أولى ،

- ونشر طبعة ثانية في باريس عام ١٩٦٠ .
عدالة وفن : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس بعنوان (مذكرات
قضائي شاعر) عام ١٩٦١ .
بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
الملك أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ ،
وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثرى كنتنتز بريز)
بواشنطن ١٩٨١ .
سليمان الحكيم : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠
وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (كنتنتز بريز) بواشنطن ١٩٨١ .
نهر الجنون : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
عرف كيف يموت : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
المخرج : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
بيت القمل : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
وبالإيطالية في روما عام ١٩٦٢ .
الزمار : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
براكسا أو مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس
عام ١٩٥٠ .
السياسة والسلام : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
وبالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثرى كنتنتز بريز)
بواشنطن ١٩٨١ .
شمس النهار : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
واشنطن عام ١٩٨١ .
صلاة الملائكة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
واشنطن عام ١٩٨١ .

- الطعام لكل فم : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
واشنطن عام ١٩٨١ .
- الأيدي الناعمة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
واشنطن عام ١٩٨١ .
- شاعر على القمر : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز)
واشنطن ١٩٨١ .
- الورطة : ترجم ونشر بالإنجليزية في أمريكا (ثرى كنتنتز) واشنطن
عام ١٩٨١ .
- الشیطان في خطر : ترجم بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠ .
- بين يوم وليلة : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠
وبالأسبانية في مدريد عام ١٩٦٣ .
- العش الهادئ : ترجم بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤ .
- أريد أن أقتل : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤ .
- الساحرة : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٣ .
- دقت الساعة : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤ .
- أنشودة الموت : ترجم ونشر بالإنجليزية في لندن هاينان عام ١٩٧٣
بالأسبانية في مدريد عام ١٩٥٣ .
- لوعرف الشباب : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤ .
- الكنز : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٤ .
- رحلة إلى الغد : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٦٠ .
- بالإنجليزية في أمريكا بدار نشر (ثرى كنتنتز بريس) بواشنطن عام
١٩٨١ .
- الموت والحب : ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٦٠ .
- السلطان الحائر : ترجم ونشر بالإنجليزية في لندن هاينان عام ١٩٧٣

- وبالإيطالية في روما عام ١٩٦٤ .
- يا طالع الشجرة : ترجمة دنيس جونسون دافيز ونشر بالإنجليزية في لندن عام ١٩٦٦ في دار نشر أكسفورد يونيفرستى بريس (الترجمات الفرنسية عن دار نشر « نوفيل إيديسيون لاتين » بباريس) .
- مصير صرصار : ترجمة دنيس جونسون دافيز عام ١٩٧٣ مع : كل شيء في مكانه . السلطان الحائر . نشيد الموت .
- لنفس المترجم عن دار نشر هاينمان — لندن .
- الشهيد : ترجمة داود بشاي (بالإنجليزية) جمع محمود المنزلاوى تحت عنوان « أدبنا اليوم » مطبوعات الجامعة الأمريكية بالقاهرة — ١٩٦٨ .
- محمد ﷺ ترجمة د . إبراهيم الموجنى ١٩٦٤ (بالإنجليزية) نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . طبعة ثانية مكتبة الآداب ١٩٨٣ .
- المرأة التي غلبت الشيطان : ترجمة تويليت إلى الألمانية عام ١٩٧٦ ونشر روتن ولوننج بيرلين .
- عودة الوعي : ترجمة إنجليزية عام ١٩٧٩ لبيلي وندر ونشر دار ماكملان — لندن .

— ١١ —

لماذا أدون حياىى فى يوميات ؟ ألأنا حياة هنية ؟ كلا ! إن صاحب الحياة الهنية لا يدونها ، إنما يحياها . إنى أعيش مع الجريمة فى أصفاد واحدة . إنها رفيقى وزوجى أطلع وجهها فى كل يوم ، ولا أستطيع أن أحادثها على انفراد . هنا فى هذه اليوميات أملك الكلام عنها ، وعن نفسى ، وعن الكائنات جميعاً . أيتها الصفحات التى لن تنشر ! ما أنت إلا نافذة مفتوحة أطلق منها حرىتى فى ساعات الضيق ! ..

١١ أكتوبر سنة ...

أويت إلى فراشي البارحة مبكراً ؛ فلقد شعرت بالتهاب الحلق ، وهو مرض يزورني الآن من حين إلى حين . فعصبت على رقبتى خرقه من الصوف ، وعمرت بقطع من الجبن العتيق مصايد الفيران الثلاث ، ونصبتها حول سريري كما تنصب الألغام الواقية حول سفينة من سفن الصليب الأحمر ، وأطفأت مصباح النفط ، وأغمضت عيني وأنا أسأل الله أن ينيم الغرائز البشرية في هذا « المركز » بضع ساعات ، فلا تحدث جناية تستوجب قيامي ليلاً وأنا غلي هذه الحال . فلم أكد أضع رأسي على المخدة حتى كنت حجراً ملقى ، إلى أن حركني صوت الخفير يضرب الباب ضرباً شديداً ، وينادي خادمي صائحاً : « اصح يا دسوقي ا » ، فعلمت أن جناية وقعت ، وأن الغرائز لم تنم لأنني أردت أنا أن أنام . فنهضت لوقتي وأشعلت المصباح ، ودخل عليّ خادمي يفرك عينيه بيد ، ويقدم إليّ بالأخرى (إشارة تليفونية) فأدنيت الورقة من الضوء وقرأت : « الليلة ؛ الساعة ٨ مساء ، بينما كان المدعو قمر الدولة علوان ماشياً على الجسر بالقرب من « دابير » الناحية أطلق عليه عيار نارى من راعة قصب والفاعل مجهول ، وبسؤال المصاب لم يعط منطلقاً وحالته يئة ، لزم الإخطار » . « العمدة » .

فقلت في نفسي : لا بأس ، تلك حادثة بسيطة تستغرق منى على كثر ساعتين ؛ فالضارب مجهول ، والمضروب لا يتكلم ولا يثرثر ، الشهود ولا ريب : الخفير النظامى الذى سمع صوت العيار فذهب إليه

خائفاً متباطئاً ؛ فلم يجد بالطبع أحداً بانتظاره غير الجثة الطريجة ، والعمدة الذى سيزعم لى حالفاً بالطلاق أن الجاني ليس من أهل الناحية ، ثم أهل المجنى عليه الذين سيكتمون عنى كل شىء ليثأروا لأنفسهم بأيديهم . فسألت خادمي عن الساعة وكتبت فى ذيل الورقة : « وردت الساعة العاشرة- ، وقائمون لضبط الواقعة » وقمت من فورى إلى ثيابى فار تديتها على عجل ، كما يصنع رجال المطافئ ، وأرسلت فى طلب كاتب التحقيق وسيارة النيابة ، وأوفدت من يوقظ مساعدى الجديد وهو شاب رقيق الحاشية ، حديث عهد بالعمل ، كان قد أوصانى أن أستصحبه فى الوقائع ليكتسب الخبرة والمران . ولم ألبث أن سمعت يباى بوق سيارة المركز « البوكس فورد » بها المأمور ، ومعاون الإدارة ، وبعض الجنود . فنزلت إليهم فوجدت كل شىء قد أعد ولا ينقصنا إلا كاتب التحقيق ، فلم أعجب . لأنى ما أبطأت يوماً فى القيام إلى واقعة إلا كان السبب كاتب التحقيق ، فى أى بلد كان ، وفى أى مركز. والتفت إلى الخفير وقلت .. أنت متأكد أنك ناديت سعيد أفندى ؟ فسمعت فى الطلام صوت الحذاء الضخم يضرب الأرض ، ولحت يداً ترتفع بالتحية فوق (البلدة) الطويلة ذات الرقعة النحاسية ، وفماً يتحرك تحت شارب أسود كبير كأنه ذنب القط : « لبس القميص قدامى باسعادة البك ! » . ورأينا أن نتطلق بسياراتنا لتمر بمنزل الكاتب فنستصحبه . . فركبت أنا ومساعدى والمأمور سيارة النيابة حتى بلغنا منزلاً قديماً فى طرف البلدة . فصاح الخفير وكان قد تعلق بسلم السيارة ليدلنا على الطريق .. « انزل يا سعيد أفندى . » فأطل الكاتب من نافذة قصية وهو فى جلباب النوم « حادثة ؟ » فصاح الخفير . « حادثة ضرب نار » ، وما أشعر عندئذ إلا

بيد المأمور قد خرجت من نافذة السيارة ونزلت على قفا الخفير . « يا خفير يا ابن . . لبس القميص قدامك يا ابن ال . . » . « وحياة رأس سعادة البك كان لأبسه . . » . ولم أر ضرورة للتحقيق في هذه المسألة ، فالأمر لا يخرج عن اثنتين : إما أن الخفير لا يعرف القميص من اللباس وهو شيء غير مستغرب ، وإما أن سعيد أفندي قد عاد فخلع قميصه ونام من جديد ، وهو شيء أيضاً غير مستغرب . وما دمت أنا وحدى المسئول رسمياً عن التأخير ، فلا نفع إذن من صياحي مع سعيد أفندي غير تصديع رأسي ، وأنا أحوج الناس إلى الراحة الليلة ، وإلى توفير الجهد والكلام للقضية الحقيقية التي من أجلها نتجشم . ولم يلبث الفتور أن دب في أعضائي ؛ فأسندت رأسي إلى ركن السيارة وقلت لمن معي : « محل الحادث على بعد ثلاثين كيلومتراً ، فلا بأس من أن أنعس مسافة الطريق » وأغمضت عيني ، وتحركت سيارتنا وخلفها « البوكس فورد » وبه الكاتب والمعاون والباشجاويش والعساكر — وما كدنا نخرج إلى الطريق الزراعية حتى سمعنا صوت غناء في جوف الليل ، فأخرج المأمور رأسه من النافذة في الحال وصاح : يا حضرة معاون ! نسينا الشيخ عصفور . ووقفت القافلة ؛ وإذا الصوت يخرج واضحاً من دغل « بوص » على حافة غيظ :
... ورمش عين الحبيبة يفرش على فدان ...

فأسرع معاون منادياً : « اطلع يا شيخ عصفور . حادثة ! » فظهر ذلك الرجل العجيب الذي يهيم على وجهه بالليل والنهار ، لا يعرف النوم ، يغنى عين الأغنية ، ويلفظ كلمات ، ويلقى بتنبؤات . يصغى إليها الناس ؛ ذلك الرجل الذي لا يفرحه شيء مثل خروجه إلى الحوادث مع النيابة والبوليس ؛ فهو يسمع عن بعد بوق « البوكس فورد » ، ويتبعه أينما ذهب

— ١٥ —

كالكلب الذى يتبع سيده إلى الصيد . لماذا كل هذا ؟ طالما سألت نفسى ألا يكون لهذا الرجل سر . ودنا الرجل من « البوكس » قائلاً فى شبه احتجاج .

— كنتم طالعين من غيرى ... ؟

فأجابه الباشجاويش باسماً :

— أبداً ! لو كنا نعرف عنوانك لبلغناك الإشارة !

. فقال الرجل :

— طيب . هات سيجارة !

فغمزه الباشجاويش سريعاً وقال له فى صوت خافض

— اسكت ، يسمعك البك المأمور .

فقال الشيخ عصفور :

— هات سيجارة يا حضرة الباشجاويش ، لأنى أنا الليلة

« باشخرمان » !

وصعد الرجل إلى « البوكس فورد » كأنه يصعد إلى « رولز رويس » بعد أن انتزع من الدغل عوداً أخضر حملة فى يده كالصولجان . وانطلقت السيارتان بين المزارع وقد نامت الطبيعة وسكنت الأصوات . إلا من نقيق الضفادع ، وهفيف الحشرات ، وتغريد الشيخ عصفور المتصاعد من جوف « البوكس » . وقد أغفيت أنا أيضاً إغفاءً التى اعتدتها كلما ركبت إلى واقعة ، إغفاءة متقطعة لا تمنعنى أحياناً من سماع ما يدور حولى من الكلام . وكان مساعدى إلى يسارى متيقظاً يبدو عليه العجب ويريد أن يسأل عن كل شىء فيمنعه الخوف من إزعاجى . فالتفت إلى المأمور بجواره ؛ وسرعان ما اشتبكنا فى حديث طويل لم أع منه شيئاً . فهو الذى

أنامنى النوم العميق طول الطريق ، وانتبهت على وقوف السيارة بعد زمن ليس بالقصير ، ففتحت عيني فإذا نحن أمام ترعة .. وإذا (المعديّة) فى انتظارنا لتنقلنا إلى الضفة الأخرى .

فنزلنا جميعاً وامتلاً بنا القارب كأننا غرقى فى زورق النجاة أو « أزيار » من الفخار فى مركب بالصعيد . وسارت بنا « المعديّة » حتى بلغت الشاطئ الآخر ونحن لا نسمع فى سكوت الليل العميق غير سلاسلها تضرب الماء ، ولا نرى من حلك الظلام شيئاً . ولم تكد تظاً أقدامنا البر حتى سمعنا سهيل خيل ؛ وإذا أمامنا « الركائب من خيول « نقطسة البوليس » وحمير العمدة ، مهياًة لحملنا إلى مكان الحادث . وآه من الخيول ! لقد تقدم إلى أحد الجنود بجواد مطهم إجلالاً لقدرى . ورأيت هذا الحصان يتبختر ويفحص الأرض بحوافره ، ولا يصبر على الهدوء حتى اعتلى ظهره ، فعلمت أنى لا محالة واقع على الأرض . ولطالما كدت أقع من فوق تلك الظهور اللاعبة التى لا يحكمها غير فارس بارع لا راكب نائم . ولطالما فضلت عليها الحمير الهادئة غير أنى نظرت خلفى فإذا أكابر القافلة قد امتطوا الخيول ولم تبق الحمير إلا للأوباش ؛ فخجلت أن أنزل عن جوادى وأن أحاذى فى المرتبة الشيخ عصفور ، وقد اعتلى حماراً أشهب وخزه بصولجانه الأخضر فانطلق به فى ذيل الجياد . أسلمت أمرى لله ، وسرت فى المقدمة قائداً مترنحاً من الخوف والتعب إلى أن ظفر النوم بجفونى فلم أشعر بشىء . وفجأة وجدت جسمى قد طار من فوق الجواد ووقع على عنقه ! فقد قفز الحصان فى قناة ماء قفزة شديدة خلعتنى من فوق ظهره خلعا . فقلت . « ما حسبناه لقيناه ! » وصحت بالخفير الملحق بركابى . « الحصان يا خفير ! الحصان ! » فوقف الركب واحتل

النظام ؛ وأوسع المأمور رجاله شتما وشفعاً ، وأمرأ و نهياً وأعادوني إلى
ظهر جوادى وأنا أقول لأدارى خجلى : يظهر الحصان نام وهو ماش ، أو
خاف من ثعلب فأر فجمع . على كل حال أمسك اللجام يا خفير .
فأمسك خفيران اللجام ومشياى رويداً رويداً مشية هادئة متزنة أعادت إلى
نفسى هجوعها فلم أصح إلا فى مكان الواقعة .. وأبصرت ضوء المصابيح
والمشاعل فى أيدي الأهالى المجتمعين حول المصاب ، فطار التعب من رأسى
كما تطير البوم من وكرها على الضوء المقترّب . وأسرعت فى النزول من
فوق صهوة الجواد وشققت طريقاً بين الناس الذين هتفوا فى صوت خافت
« النياية حضرت » . ودنوت من ذلك الجسم الممدد على الأرض ،
وحدقت فى ذلك الوجه المعفر بالتراب والدم ، فعلمت أنه حقيقة لن
يتكلم ، وقد وجدت ملاحظ « النقطة » غارقاً لأذنيه فى تحريسر
« محضره » الذى سأضرب به عرض الحائط ؛ فالنياية متى حضرت بحثت
كل شىء من جديد.. وباشرنا التحقيق مفتتحين بمحضر المعاينة ، فأمسك
الكاتب ورقة وقلماً ودنامنى فأملت عليه الديقاجة المعروفة : « نحن فلان
وكيل النياية ومعنا فلان كاتب التحقيق. الليلة الساعة كذا وردت إلينا الإشارة
التليفونية رقم كذا ونصها كذا. وعليه قمنا بسيارة إلى ناحية كذا، فبلغناها
افتتاح هذا المحضر إلخ إلخ .. ذلك أنى أحب دائماً أن أعنى بتحرير «محضرى» أن
أجعله مرتباً ترتيباً منطقياً والمحضر هو كل شىء فى نظر أولى الأمر. وهو وحده
الشهادة الناطقة للنائب بالدقة والبراعة. أما ضبط الجانى فأمر لا يسأل عنه أحد.
ويلى «الديقاجة» وصف الإصابة والملابس والموضع الذى وجد فيه الجنى عليه.
فما قصرنا. وأملت على الكاتب أوصاف ذلك الجرح النارى الذى رأينا ثقبه
المتسع فى كتف المصاب. وقد حدث فيما أرى من
(يوميات نائب فى الأرياف)

« حشار » بندقية أطلقت على بعد غير كبير فهتكت اللحم وأنزفت الدم .
وقد وصفنا الوجه خير وصف ، وهو لرجل قارب الأربعين وسيم قسيم ،
تلك الوسامة الريفية بما فيها من رجولة وصحة وقوة . ولم بفتنا ذكر وشم
العصفور المرسوم في أعلى صدغه ، ولالون شاربه الضارب إلى الصفرة
والثياب أحصيناها من « الدفية » والجلباب الغزلى وكيس النقود الذى لم
يمس ، إلى السروال « البفتة » الأبيض ذى التكة الحمراء . نعم ، لم ننس
تكة اللباس ونوع نسيجها ، فإن ذكر التفاصيل دليل على الدقة والعناية .
هكذا تعلمنا التحقيق كإبراً عن كإبراً ! وأذكر أنى تركت ذات مرة جريحاً
يعالج سكرات الموت ، وجعلت أصف سرواله وتكته و « بلغته » و
« لبدته » ، فلما فرغت انخيت على المصاب أسأله عن المعتدى عليه ، فإذا
بالمصاب قدتوفى . ولم ننس وصف المكان ، وهو طريق ضيق بين مزارع
قصب على الجانبين . ولا عجب ، فإن لكل نوع من الزرع محصوله من
الجرائم : فمع ارتفاع الذرة والقصب يبدأ موسم ، « القتل بالعيار ، ومع
اصفرار القمح والشعير يظهر الحريق « بالجواز والقوالح » ، ومع اخضرار
القطن يكثر « التقليع والإتلاف » وانتهينا من الجريح المحتضر ، ولم يعد
يهمنا أمره بعد أن ملأنا « محضرنا » بأوصافه ؛ فتر كناه فى دمه تحت رعاية
ضابط « النقطة » حتى يأتى لحمله إلى المستشفى رجال الإسعاف .
وذهبنا إلى « دوار » العمدة حيث كانت فى انتظارنا القهوة . وآه من قهوة
« العمدة ! » إلى أسميها دائماً « الكلوروفورم » ؛ فما من مرة إلا أحدثت
عندى عكس المقصود من شربها ! ولست أدري العله ؛ غير أنى سمعت
ذات ليلة عمدة من هؤلاء العمد يصيح فى تابعه أمامنا . « هات يا ولد قهوة
بن » ، ولم أفهم وقتذاك معنى لإضافة لفظ « البن » إلى « القهوة » ؟

أثرى النص على البن « صراحة » جاء من قبيل التأكيد ، أم على سبيل التشريف والتكريم ؟ لست أعلم . إنما الذى علمته يومئذ واستوثقت منه أن هذا « اللفظ » الأخير وإن دخل فى تركيب الجملة . لم يدخل فى تركيب القهوة . وجلسنا فى « المنظرة » على فرش من قטיפه ذهب وبرها ولونها ، ووضع الكاتب أوراقه على خوان أعرج ، تعلوه رخامة مكسورة ، ونشر المحضر « تحت » مصباح كبير له دوى وطنين قد جمع حوله هوام الليل ، وصحت أطلب الشهود . فصاح المأمور لصياحى . « اجمع الشهود يا حضرة المعاون » . وارتمى على مقعد رطب فى ركن الحجرة ارتماء أدركت معها أن ليس بعدها غير نعاس وغطيط ، وجلس مساعدى على مقربة منى يرمق ما يجرى بعيون فاترة ، تنم عن كسل بدأ يداعبها مداعبة النسيم للأوراق . وجاءونى بالخفير النظامى الذى سمع صوت العيار وهرع إلى مكان الجريمة أول من هرع . فلم يخيب ظنى فى شىء إلا فى قوله إنه سمع عيارين ، مع أن الوارد فى « الإشارة » عيار واحد ، والاصابة من عيار واحد ، وأقوال الحاضرين متفقة على أنه لم يدو فى القرية سوى عيار واحد . ما حظ هذا الرجل من الكذب ؟ لست أدرى ، وتركنا جوهر القضية وانصرفنا إلى مسألة العيار والعيارين . فسألنا الجميع من جديد فأجابوا مجمعين . عيار واحد يا سعادة البك .

— سمعت يا خفير ...

— عيارين يا سعادة البك .

— متأكد ؟

— عيارين يا سعادة البك .

هنا ثقل التحقيق وسماجة المهنة . أفهم أن يكذب المتهم ، فهو

حقه الطبيعي ، وما أطمع قط أن يصدقني متهم . ولكن الشاهد ، ماذا يحمله على أن يلقي على وجه الحقيقة كلفاً من التشكيك والتناقض ، لوجه الله تعالى . ؟

ومضى التحقيق في شعاب مظلمة لا أمل معها في الوصول إلى شيء .
فما من أحد يعرف الجاني ؛ وما من أحد يتهم أحداً ؛ وما من أهل للمضروب في هذا البلد غير أم عجوز مريضة كسيحة ضعيفة البصر لا تستطيع الكلام ، وغير زوجة ماتت منذ عامين وتركت طفلاً صغيراً لا يصلح للوقوف أمامنا في موقف السؤال، وما من أحد يعرف أن بين المصاب وبين إنسان على وجه البسيطة عداوة أدت إلى ارتكاب الجريمة . أهبط إذن شيطان من الجحيم فأطلق على الرجل العيار ؟ لا أحد يدري . لقد وجدت ما حسبت . إني منذ قرأت « الإشارة » أدركت أن القضية ميتة . وهل أستطيع أنا « بتحقيقي » أن أبعث الحياة فيما لا حياة فيه ؟ إن لم يقبل عليّ الشهود بالصدق ، وتعاونني الأهالي بالرغبة والإخلاص فأى « محضر » في الوجود يوصلني إلى التشرف مرة بمعرفة جان من الجناة ؟ وجاءت نوبة العمدة في الشهادة ، وحلف اليمين وبدأنا نلقى تلك الأسئلة التي لا تقدم ولا تؤخر .. وإذا بغطيط يعلو من ركن الحجره ويغطي على التحقيق . فالتفت فإذا المأمور قد « كوع » على « الكتبة » ؛ ورأى العمدة هذه الالتفاتة مني ، فاستأذني واتجه إلى المأمور وأيقظه في لطف :

— تفضل يا بك على السرير في القاعة .

وقاده في أدب ولطف إلى حجرة أخرى داخلية . ثم عاد أمامي يدلي بما عنده من أقوال رسمية « تجارية » قد دمغت بطابع الوظيفة ألفاظها وعبارتها تكاد لا تتغير بين عمدة وآخر ، وهي على كل حال لا تنفع ولا تضر ،

وتلقى على نار الحادث برداً وسلاماً ، ولم يكد حضرة العمدة يوقع بإمضائه الذى يضاهى نبش الدجاج تحت أقواله ، ويتنحى عن موقف الشهادة ، حتى فتح باب الحجرة الداخلية وظهر المأمور وهو يحك جسمه بأظافره ويلتقط بأصبعه أشياء على ملابسه ينفضها عنه ، وهو يرغب ويزيد :

— سرير ! أعوذ بالله ! انت عمدة أنت ... ؟

فعلت ما حدث بالتمام . وضحكت فى نفسى . وتظاهرت بالانهماك فى عملى فلم أرفع وجهى عن الأوراق . وجلس المأمور فى مقعده جلسة من قد ذهب النوم من عينيه ذهاباً لا رجعة له تلك الليلة . ولم يلبث أن صاح فى العمدة :

— هات قهوة والسلام . اعملها موزونة وحياة عينيك .

ثم وجه إلى الكلام كأنه يريد أن يسلى سهره :

— القضية على الحبل ؟

وهو يرمى بهذا الاصطلاح إلى استطلاع حال القضية ومدى نجاحها النجاح الذى يؤهلها للذهاب برأس المتهم إلى المشنقة فأجبتة فى صوت غير مرتفع دون أن أنظر إليه ، وكأنى أخطب نفسى .

— القضية على السرير !

وفجأة نهض المأمور عن مكانه كأنما قد تذكر مفتاح السرو صاح .

— يا شيخ عصفور ! ...

فبرز رأس الرجل العجيب من خلف كرسى من القش بركن مظلم من أركان القاعة ونهض بصولجانه الأخضر كأنه يقول : « لبيك » .

— رأيك يا شيخ عصفور ؟

فلم أطق صبراً . ما كان ينقصنا حقاً إلا أن نستشير المعتوهين في قضايا الجنايات ! فنظرت إلى المأمور نظرة ذات معنى ، فاقترب منى وقال :
— الشيخ عصفور كله بركة . مرة دلنا على بندقية متهم مدفونة في قاع الترعة !

— يا حضرة المأمور . بدلا من سؤال الشيخ عصفور والشيخ طرطور كلف خاطرنا وانتقل مع المعاون والعساكر ، وفتشوا دور المشتبه فيهم من الأهالي .

فصاح المأمور :

— يا حضرة المعاون .

فأقبل المعاون من خارج الحجرة وقد سمع قولى ، وقدم إلى رئيسه « محضر تفتيش من قسيمة واحدة » :

— أجرينا التفتيش يا قندم !

فلم ينظر فيه المأمور وناولنى إياه ، فجريت ببصرى على الكلام الطويل العريض وانتهيت إلى العبارة المألوفة : « ... ولم نعثر على شيء من الأسلحة أو الممنوعات ... »

فأشرت في ذيل الورقة : « يُرفق بالمحضر » ، ووضعت رأسى فى كفى أفكر فيما ينبغى عمله فى هذه القضية ، وفيمن ينبغى سؤالهم حتى تكمل محضرنا عشرين صفحة على الأقل . ذلك أنى ما زلت أذكر كلمة رئيس النيابة يوماً لى وقد تناول محضراً فى عشر صفحات :

« مخالفة ؟ جنحة ؟ » فلما أخبرته أنها قضية قتل صاح دهشاً : قضية قتل تحقيق فى عشر صفحات فقط . قتل ! قتل رجل ! قتل نفس آدمية فى عشر صفحات !؟ « فلما قلت له : « وإذا ضبطنا الجانى بهذه الصفحات

— ٢٣ —

القليلة » لم يعبأ بقولي ومضى يزن المحضر في ميزان كفه الدقيق : « من يصدق أن هذا محضر قتل رجل ١؟ » فقلت له على الفور : « إن شاء الله نراعى الوزن » !

مر بخاطري كل هذا وأنا مطرق صامت .. وإذا صوت الشيخ المعتوه يرتفع في القاعة منشداً :

فتش عن النسوان ،

تعرف سبب الأحزان ،

ورمش عين الحبيسة ،

يفرش على فدان ...

لم أغضب على الشيخ الذى امتن حرمة التحقيق بهذا الغناء ، ولم أطرده خارج القاعة ، ولكنى تفكرت قليلا فى مغزى كلامه لو أن له مغزى ينفعى .. كل ما يجوز الالتفات إليه كلمة « النسوان » ، والتفتيش لا عن المشبوهين بل عن النسوان . أى نسوان ؟ إني لم أرقضية خلت من النسوان مثل قضيتنا هذه . فالمضروب يعيش وحيدا بعد أن ماتت زوجته . ولا أحد معه غير أم عجوز كسحاء لا ينبغي أن تحسب فى النساء . لا ريب أن هذا العصفور لا يعنى ما يقول . هذا الشيخ الأخضر من فصيلة البيغاء لا شك ، يردد الألفاظ والأغاني دون أن يعنى بها شيئا من الأشياء .. لكن مهلا ! إن للمجنى عليه طفلا ، فهل تلك الأم المقعدة المريضة هى التى تعنى بشأته ؟ « تعال يا عمدة ... » وألقيت على العمدة هذا السؤال . فأجاب فى براءة الطفل وسداجة الأبله .

— الولد فى حضن البنت !

— أى بنت ؟

— ٢٤ —

— البنت ، أخت المرحومة امرأته .

— بنت كبيرة ؟

— « عيلة » .

فنظرت إلى الماعون وأمرته أن يحضر هذه البنت في الحال . ولم يمض
قليل حتى بدت غادة في السادسة عشرة من عمرها ، لم ترعيني منذ
وجودي في الريف أجمل منها وجهاً ولا أرشق قدا ؛ وقفت بعتبة الباب في
لباسها الأسود الطويل كأنها دمية من الأبنوس طعمت في موضع الوجه
بالعاج . وقال لها العمدة مشجعاً :
— ادخلي يا « عروسة » .

فتقدمت في حياء ، واضطربت خطواتها ، إذ لم تعرف بين يدي من
الجالسين يجب عليها الوقوف . فوجهها العمدة التي فوقفت في وجهي
ورفعت إلى رمشين .. ولأول مرة يرتج على في « التحقيق » فلم أدر كيف
أسأها .. ولم يرها الكاتب ، فقد كان موقفها خلف ظهره . فلما لحظ
صمتي ظن بي تعباً ، فغمس القلم في الدواة ورفع رأسه إليها وهو يسأها :
— اسمك يا بنت .. ؟

فما إن وقع بصره عليها حتى حملق فيها ولم يعد إلى الورق . ونظرت
حولى فوجدت مساعدى الناعس قد أفاق ونشط وأخذ يرمق الصبية بعينه
الواسعتين ، ونقلت بصرى إلى المأمور فإذا به الساعة في غير حاجة إلى
قهوة ولا إلى بن ، وزحف الشيخ عصفور حتى بلغ موطنى قدمى فأقعى
كالكلب ينظر إلى الفلاحة الحسناء فاغراً فاه . حقاً إن للجمال هيبه ..
ورأيت أن أملك سريعاً ناصية نفسى قبل أن ينكشف الأمر ، فقلت
لصاحبة الجمال وأنا أكبح عيني حتى لا أنظر إليها .

— اسمك ؟

— رجم .

لفظته في صوت .. هز نفسي كما تهز الوتر أنا مل رقيقة ، فما شككت في أن صوتي سيتهدج إن ألقىت عليها سؤالا آخر فترشت وبدت لي دقة الموقف وأيقنت ببطء التحقيق إذا قدر لي أن أقف كالدائخ بين السؤال والسؤال فاستجمعت ما بقى عندي من شتات القوة والعزم وهجمت بأسئلة لا أنتظر الجواب عنها إلا جملة ، وقلت لها تكلمي في كل هذا .. ولبثت أنظر ، فعلمت منها العجب العجيب ! إنها حتى الآن لا تعلم ما جرى للمجنى عليه ! فقد أيقظوها من النوم للساعة ، وجاءوا بها أمامي دون أن يذكروا لها شيئاً ؛ ولم أشأ أن أخبرها الآن بما وقع وقد آنست منها أشياء لا يدركها إلا مجرد الإحساس ..

سألتها : ألم يخطبها خاطب ؟ فكان الجواب : بلى : آخر من تقدم إليها فتى جميل لم ترفضه ، ولكن زوج أختها وهو مقام وليها تردد في القبول كما تردد دائما في قبول الأيدي الكثيرة التي ارتفعت تدعوها كما ترتفع أيدي المؤمنين بالدعاء ! ... « أو تحقدين عليه من أجل هذا ؟ » . فكان الجواب كذلك : لا ، قالتها في نبرة حارة : حرارة خاصة أدر كُنْها كذلك بإحساسى . « وهل كان بينك وبين الفتى الخاطب اتصال ؟ » نعم لقد اجتمعنا أمام الدار مرتين في لقاء برىء . وقد علم أنها لا تكرهه زوجاً ، ولكنها تكره مخالفة وليها ، وذلك الوالى ما غايته من رد الخاطبين والطلاب ؟ أهو غلو منه في الحرص على هنائها ؟ أهو لا يجد الزوج الكفء ؟ إنها لا تعلم حقيقة سره . وإنها لتريد أن تعلم . وإن هذا ما يحيرها أحياناً ، وما يبكيها . إنها تريد أن تعلم . تعلم ماذا . ؟ ... لا شيء . لا

تستطيع التعبير .. إن التعبير هبة لا يملكها كل الناس .
وبعد فالتعبير يستوجب العلم بحقيقة الشعور الرابض في أعماق
النفس .. وهذه الفتاة فيما يخيل إلى ، ذات نفس كدغل « البوص
والقصب » لا يصل إلى قاعها من الضوء غير قطع كاللدنانير تتراقص في
ظلام القاع كلما تمايل القصب ...

على أى حال قد بدأت قطع من الضوء تتساقط أيضاً بين سطور
« المحضر » ، وبدأنا نضع أيدينا على عصب نابض من أعصاب القضية ،
وهممت أن أطلب فنجانا آخر من القهوة وقد طاب المجلس وحلا
التحقيق . وإذا المعاون يسأله ملاحظ النقطة وقد ظهر بالباب :

— أحضر الإسعاف ونقل المصاب ؟

— من زمان !

فأدركت الصبية كل شيء فانطلقت من فمها صيحة كتمتها في الحال
خجلاً منا ، غير أنى ماشككت في أن لها دويًا وانفجاراً داخل نفسها .
وأردت أن أمضى في عملي فما وجدت أمامي غير فتاة تجيبني بكلام أبتز لا
شبع فيه ولا غنى . ورأيت أن أرجى التحقيق فقلت :

— استريحى يا ريم ...

ونظرت إلى المأمور .

— الأحسن نكمل التحقيق الصبح .

فأشار إلى النافذة ، فإذا النهار يدخل منها متلصصاً وقد خدعنى عنه
المصباح المضىء . فاستويت على قدمي إذ ذكرت للفور أن جلسة الجنح
اليوم ، وقد فاتنى أن أدبر الأمر من الليل حتى يخلفنى فيها نائب من
الزملاء ؛ فلا مفر لي إذن من العودة العاجلة حتى أحضر الجلسة في الميعاد .

— ٢٧ —

— يا حضرة المعاون ! هات البنت في « البوكس » !
وأقفلنا المحضر على أن نستأنف التحقيق بعد الجلسة في دار النيابة .
وقمنا إلى « الركايب » فامتطيناها عائدين والشيخ عصفور خلفنا يصيح
ويلوح بعوده الأخضر في حركات الثائر المهتاج :

— هي بعينها !

والمأمور يجيبه :

— اعقل ... !

— هي بعينها ، برمشها .. عرفتها ، برمشها .

— اعقل يا شيخ عصفور ، وافطن لنفسك ، تقع من فوق الجحش !
ودب التعب في أعضائي فأنخيت على ظهر الحصان ، ولكن نسيم
الصباح الرطب كان يضرب وجهي ضربات خفيفة كأنها لطمات مروحة
في يد ما جنة ظريفة ، فلم أفقد نشاطي وطفقت أفكر ، وإذا غناء
العصفور يرتفع بغتة شديداً كأنه شيء قد انخلع مع قلبه :

— ورمش عينها يفرش ...

ولم أسمع البقية ، بل سمعت شيئاً سقط على الأرض فالتفتنا فألفينا
الشيخ عصفور بأطماره على الأرض قد فرش .. فوقفنا . وأسرع إليه
الخفراء فحملوه إلى حماره ، فاستوى عليه وهو ينفذ عن جسمه التراب
صائحاً مستأنفاً :

— ... على فدان ...

وسمعت المأمور ومساعدى يضحكان ضحكا صافياً . ثم سمعت
: المأمور ينتهر المعتوه قائلاً له : « افطن لنفسك . صاحبتك غرقت في

الرياح من سنتين. ولم يكن في عقلي وقتئذ غير صورة الفتاة في أطمارها^(١) السوداء وسرها الذي لم أنفذ إليه بعد. إن سرها هو سر القضية. ولاني لتدفعني إلى استجلاء الأمر رغبة لا شأن لها بالعمل . إني أيضاً أريد أن أعلم . وسارت القافلة حتى بلغت مصرفاً متسعاً عميقاً خراً بالماء ، ركبت عليه خشبة من جذوع النخل في عرض الذراع . وأراد الخفير أن يدفع عجز حصاني ليجتاز بي المصرف على هذه الخشبة التي في ضيق الصراط فانتبهت وصحت :

— أنت مجنون يا خفير .. أمر من هنا أنا والحصان ؟

فبدت على وجه الرجل دهشة :

— سبق لك يا سعادة البك المرور من هنا بالليل أنت والحصان ده .

فنظرت إلى الخشبة في شبه رعب :

— أنا ؟ عدت بالليل المصرف من هنا على الخشبة دي ؟ وكنت وقتها

فوق الحصان ده ؟ مستحيل !

— الطريق واسع يابك والحصان عاقل ..

ولم أرد أن أصغى إلى كلام الخفير أكثر من ذلك . فإذا كانت هذه الخشبة طريقاً متسعاً في نظر هذا الرجل فهو من غير شك سيجتاز الصراط في الآخرة ركباً جملاً . أما عقل الحصان فإن ضمنه هو ، وهو ليس راقبه ؟ فما يحملني أنا الراكب على هذه الضمانة الخطرة ؟ وأسرعت فنزلت إلى الأرض واجتزت المصرف ما شيا على قدمي فوق الخشبة ؛ معتمداً على عصاي ...

(١) الأطمار : جمع طمر وهو الثوب البالي .

١٢ أكتوبر :

لما عدنا كان ميعاد الجلسة قد حان . ودنت سيارتنا من المحكمة فشاهدنا الأهالى بيابها مكدسين كالذباب . وكان مساعدى قدحرف إلى جوارى صريع الكرى ، ولم يهمنى أمره ، ولم يدر بخلدى قط أن أدعوه وهو على هذه الحال من التعب إلى مشاهدة الجلسة بجوارى كما شهد التحقيق . إنه لم يعتد بعد وصل الليل بالنهار . وحسبه هذه السهرة الممتعة ؛ فلا ترفقن به فى أول عهده بالخدمة . وما إن مررنا بالمحكمة حتى أمرت السائق بالوقوف وأوصيته أن يمضى بالمساعد إلى منزله ، وحيث المأمور ونزلت أشق طريقاً بين أكوام الرجال والنساء والأطفال . ودخلت حجرة المداولة فوجدت القاضى فى الانتظار . وما كدت أرى وجه القاضى حتى وجمت ؛ ففي المحكمة قاضيان يتناوبان العمل ، أحدهما يقيم فى القاهرة ولا يأتى إلا يوم الجلسة فى أول قطار ، ويسرع فى نظر القضايا حتى يلحق قطار الحادية عشرة الذى يعود إلى القاهرة . ومهما زادت القضايا وبلغ عددها فإن هذا القطار لم يفت القاضى يوماً قط . أما القاضى الثانى فهو رجل ذو وسواس ، وهو بعد يقيم مع أسرته فى دائرة المركز ، فهو يبطنى فى نظر القضايا خشية العجلة والغلط ولعله أيضاً يريد شغل وقته وتسلية ضجره فى هذا الريف وليس أمامه قطار يحرص على ميعاده ؛ فهو من الصباح يجلس إلى المنصة وكأنه قطعة منها سمرت فيها فلا ينفصل عنها إلا قبيل العصر . ويستأنف الجلسة فى أكثر الأحيان عند المساء . وكانت تديقنى جلسته مرّ العذاب ، فهى الحبس بعينه ، وكأنا قضى على أن أربط إلى منصتى لا أبدى حراكاً طول النهار ، وقد وضع حول عنقى وتحت لبطي ذلك الوسام الأحمر الأخضر كأنه الغل . أهو انتقام إلهى لهؤلاء الأبرياء الذين دفعت بهم إلى الحبس دون أن أقصد ؟ أترى أخطاء المهنة تقع تبعاتها ^(١) علينا فنُدفع ثمنها فى الحياة دون أن نعرف ؟ ووجمت لرؤية القاضى إذا أدركت أنى وقعت فى جلسة لا ترحم بعد

(١) مسئولياتها

ليلة كلها عمل . ولست أدري ما الذى طمس ذاكرتى فحسبت خطأ أن
اليوم نوبة القاضى السريع .

دخلت الجلسة ؛ وكان أول ما فعلت أن نظرت فى « الرول » فإذا
أمامنا سبعون مخالفة وأربعون جنحة . عدد والحمد لله كفيل أن يجلسنا بلا
حرك مع هذا القاضى طول اليوم . على أن القضايا دائماً عند هذا القاضى
أكثر منها عند القاضى الآخر ؛ والسبب بسيط : أن القاضى الموسوس لا
يحكم فى المخالفة بأكثر من غرامة عشرين قرشاً ، بينما الآخر يرفع سعر
الغرامة إلى خمسين ، وعلم المخالفون والمتهمون بذلك فجعلوا كل همهم
الهروب من صاحب السعر المرتفع والالتجاء إلى صاحب السعر المناسب .
وطالما تبرم هذا القاضى وشكا من ازدياد عمله يوماً عن يوم دون أن يدري
العلة . فكنت أقول فى نفسى « ارفع أسعارك تر ما يسرك » وبدأ المحضر
ينادى أسماء المتهمين من ورقة فى يده . وقزمان أفندى المحضر رجل مسن
أبيض الشعر والشاربين ذو منظر وهيئة يليقان برئيس محكمة عليا ؛ وهو
إذا نادى تعاضم فى حركاته وإشاراتِهِ وصوته ، والتفت إلى الحاجب بالباب
التفاتة الأمر الناهى ، فيردد الحاجب الاسم خارج قاعة الجلسة كما تلقاه من
المحضر ، ولكن فى مدّ وغن ونغمة كنغمة الباعة المتجولين وقد لاحظ ذلك
أحد القضاة مرة فقال له : « أنت يا شعبان قاعد تنادى على قضايا جنح
ومخالفات ، أو على بطاطة وبلح أمهات ؟ » فأجابه الحاجب : « جنح
ومخالفات أو بلح أمهات ؛ كله أكل عيش » .
ومثل أول المخالفين أمام القاضى الغارق فى الأوراق فرفع القاضى رأسه
ووضع منظاره البسميك على أنفه ، وقال للمائل بين يديه :

— ٣١ —

— أنت يا رجل خالفت لائحة السلخانات بأن أجريت ذبح خروف خارج السلخانة .

— يا سيدى القاضى ، الخروف ... ذبحناه . ولا مؤاخذه ، فى ليلة حظ « عقبال عندك » بمناسبة ظهور الولد .

غرامة عشرين « قرش » . غيره ...

فنادى المحضر . ونادى ثم نادى ... مخالقات متتابعة كلها من ذلك النوع الذى مضى الحكم فيه ... وقد تركت القاضى يحكم وجعلت أروح عن نفسى بمشاهدة الأهالى الحاضرين فى الجلسة . وقد ملأوا المقاعد « والدكك » وفاض فيضهم على الأرض والممرات ... فجلسوا القرقضاء كأنهم الماشية يرفعون عيونهم الخاشعة إلى القاضى وهو ينطق الحكم كأنه راع فى يديه عصا . وضاق ذرع القاضى بذلك اللون المتكرر من المخالقات
تفصاح :

— فهمونى الحكاية ! الجلسة كلها خرفان خارج السلخانة . !

وحملق فى الناس بعينين كالحمصتين خلف المنظار الراقص على طرف أنفه ، ولم يفتن أحد ولا هو نفسه لما فى هذه العبارة من تعريض . ومضى المحضر ينادى وقد تغير قليلاً نوع المخالفة ودخلنا فى نوع جديد فقد قال القاضى للمخالف الذى حضر :

— أنت يا رجل متهم بأنك غسلت ملابسك فى الترعة .

— يا سعادة القاضى ربنا يعلى مراتبك ؟ تحكم على بغرامة لأنى غسلت

ملابسى ؟

— لأنك غسلتها فى الترعة .

— وأغسلها « فىن » ؟

فتردد القاضى وتفكر ولم يستطع جواباً . ذلك أنه يعرف أن هؤلاء المساكين لا يملكون فى تلك القرى أحواضاً يصب فيها الماء المقطر الصافى من الأنابيب ، فهم قد تركوا طول حياتهم يعيشون كالسائمة ، ومع ذلك

يطلب إليهم أن يخضعوا إلى قانون قد استورد من الخارج على أحدث طراز ، والتفت القاضى إلى وقال :
— النيابة .

— النيابة ليس من شأنها أن تبحث أين يغسل هذا الرجل ملابسه ولكن ما يعنيه هو تطبيق القانون ! فأشاح القاضى بوجهه عنى وأطرق قليلا وهز رأسه ثم قال فى سرعة من يزيح عن كاهله حملا :
— غرامة عشرين ! غيره .

فصاح قزمان أفندى باسم المخالف التالى فظهر رجل كهل من المزارعين يبدو من زرقة « شال » عمامته « المزهرة » ومن جلبابه الكشمير وعباءته الجوخ الأمبريال وخذائته « اللستيك » الفاقع فى صفرتة ، أنه على جانب من اليسار واستواء الحال . فما أن مثل حتى ابتدره القاضى :

— أنت يا شيخ ، أنت متهم بأنك لم تسجل كلبك فى الميعاد القانونى .
فتنحج الرجل وهز رأسه وتمتم كأنه يستغفر ويسترجع .

— عشنا وشفنا الكلاب تسجل « زى الأطيان » وتبقى لها حيثية !
— غرامة عشرين ... غيره .

ومضت الأحكام فى جميع المخالفات على هذا النحو ، ولم أر واحداً من المخالفين قد بدأ عليه أنه يؤمن بحقيقة ما ارتكب ، إنما هو غرم وقع عليهم من السماء كما تقع المصائب ، وإتاوة يؤدونها . لأن القانون يقول : إنهم يجب عليهم أن يؤدوها ! ولطالما سألت نفسى عن معنى هذه المحاكمة ، أنستطيع أن نسمى هذا القضاء رادعاً والمذنب لا يدرك مطلقاً أنه مذنب ؟ وفرغنا من المخالفات وصاح المحضر : « قضايا الجنح » ونظر فى ورقة « الرول » ونادى « أم السعد بنت إبراهيم الجرف » فظهرت فلاحه عجوز تدب

في وسط القاعة حتى بلغت المنصة ووقفت بين يدي قزمان أفندي المحضر .
فوجهها إلى القاضي فوقفت تنظر إليه ببصر ضعيف ثم لم تلبث، أن تحولت عنه
وعادت إلى الوقوف بين يدي المحضر الهرم. وسألها القاضي ووجهه في الورق:
— اسمك ؟

— محسوبتك أم السعد .

قالتها وكأنها توجه الخطاب إلى المحضر فغمزها قزمان أفندي ووجهها
إلى المنصة مرة أخرى وسألها القاضي .

— صنعتك ؟

— صنعتي حرمة (١) .

— أنت متهمة أنك عضضت أصبع الشيخ حسن عمارة .

فتركت المنصة ووجهت الكلام إلى المحضر :

وحياة هيبتك وشيبتك إني ما عبت أبداً . أنا حلفت ووقع مني يمين أن
البنية ما يقل مهرها عن العشرين بنتو ...

فرفع القاضي رأسه وثبت منظاره ونظر إليها صائحاً :

— تعالى كلميني هنا ، أنا القاضي أنا ، العضة حصلت منك ؟ قولي

نعم أولاً ، كلمة واحدة .

— عضة ؟ حد الله ! أنا صحيح قبيحة ، لكن كله إلا العضم .

فصاح القاضي في المحضر : « هات الشاهد » فحضر المجنى عليه وقد

لف بنصره في رباط صحى ، فسأله القاضي عن اسمه وصناعته وحلفه

اليمين أن لا يقول غير الحق واستوضحه الأمر . فقال الرجل :

(١) ولية .

— أنا يا حضرة القاضي لالى فى الطور ولا فى الطحين . والقصة وما فيها أنى كنت واسطة خير .

وسكت . كأنه قد أبان وأفصح عن سر القضية . فحملق فيه القاضي وهو يكظم غيظه ، ثم انتهره وأمره أن يقص ما حدث بالتفصيل ؛ فبسط الرجل الأمر قائلا : إن لهذه المتهمة ابنة تدعى ست أبوها « خطيها فلاح يدعى » السيد حريشة « وعرض مهراً قدره خمسة عشر بنتو فلم تقبل أمها بغير العشرين ، ووقف الأمر عند هذا الحد إلى أن جاء ذات يوم شقيق الخاطب وهو صبى صغير يطلق عليه اسم « الزنجر » فذهب من تلقاء نفسه إلى أهل العروس وأبلغهم كذباً أن الخاطب قد قبل الشرط ؛ ثم رجع إلى أخيه وأخبره أن أهل البنت قد رضوا النزول بالمهر كما عرض ، وكان من أثر عبث هذا الصبى ومكره بالطرفين أن حدد يوم لقراءة الفاتحة فى بيت العروس ، وانتدب الخاطب الشيخ عمارة هذا والشيخ فرج هذا ليكونا شاهديه . وتقابل الجميع وذبح والد البنت أوزة . وما كاد الطعام يهياً ويقدم إلى الضيوف حتى ذكر المهر . وظهرت الأكذوبة وإذا الموقف لم يتغير ؛ واحتدم الجدل بين الطرفين . وصاحت أم البنت تولول فى صحن الدار : يا مصيبتنا الكبيرة يا شماتة الأعادى والنبي ما أسلم بنتى بأقل من عشرين . وخرجت المرأة فى وسط الرجال كالمجنونة تدافع عن حق ابنتها وتخشى أن ينهى الرجال الأمر فيما بينهم بما لا ترضى ؛ وهزت الشيخ حسن الأريحية فلم يضع يده فى طعام وقام إلى المرأة يداورها ويجاورها ويقنعها . بينما مد زميله الشيخ فرج يده إلى الأوزة وينهش منها نهشاً دون أن يدخل فى النزاع المحتدم . ويظهر أن التحمس من الجانبين قد تجاوز حد الكلام وإذا الشيخ حسن يرى يده لا فى طبق الأوز ولكن فى فم العجوز ؛

فصرخ صرخة داوية وانقلبت الدار شر منقلب ، واختلط الحابل بالنابل ، وجذب الشيخ حسن رفيقه ، فانتزعه من أمام الطعام انتزاعا ، وخرج به وهو يحرق الأرم : فهذا الرفيق لم يقل كلمة وحظي بالأكل ، وهو الذى تحمس قد خرج من الوليمة بجوعه ، وقد أكلت العجوز أصبعه ...

واسترسل المجنى عليه فى الكلام . وفجأة أخذت القاضى خلجة . وتيقظ وسواسه فقاطع المتكلم ، وقال كالمخاطب لنفسه : « ياترى أنا حلفت الشاهد اليمين . » والتفت إلى قائلها يا حضرة وكيل النيابة أنا حلفت الشاهد اليمين ؟؟ » فجعلت أتذكر ... ولم يستطع القاضى طرد الشك فصاح : « احلف يا رجل : والله العظيم أقول الحق » فحلف الرجل . فصاح به القاضى : اذكر أقوالك من أولها .

فعلمت أننا لن ننتهى ، وبلغ الضيق أنفى وتشاءبت وغرقت فى مقعدى وقد عبث النوم بأجفانى ، ومضى وقت لست أدرى مقداره ، وإذا صوت القاضى يصبح لى : « النيابة ! طلبات النيابة . » ففتحت عينين حمراوين لا يبدو فيهما غير طلب النوم ، فأخبرنى القاضى أنه اطلع الآن على تقرير الطبيب الشرعى فإذا الإصابة قد تخلف عنها عاهة مستديمة هى فقد « السلامية » الوسطى للبنصر ؛ فاعتدلت فى مقعدى وطلبت فى الحال الحكم بعدم الاختصاص . فالتفت القاضى إلى العجوز قائلا :

— الواقعة أصبحت جنائية من اختصاص محكمة الجنايات . فلم يبد على المرأة أنها فهمت الفارق ؛ فالعضة فى نظرها هى ما زالت العضة ، فما الذى حولها من جنحة إلى جنائية ؟ آه من هذا القانون الذى لا يمكن أن يفهم كنهة هؤلاء المساكين !

ونوديت القضية التالية ، فإذا هى شجار بالهراوات وقع بين والد

« ست أبوها » وبين أهل الزوج (السيد حريشة) فلقد تم الزواج بين الطرفين آخر الأمر . وبعث الزوج بعض أهله ومعهم جمل لاستلام العروس من بيت أبيها . فقابلهم الأب محتدا صارخا في وجوههم « جمل » ؟ بقي بنتي تخرج على جمل أبدا . لا بد من « الكومبيل » ، وتجادل الطرفان فيمن يدفع ثمن هذه البدعة التي رماها بهم تطور العصر . وأدى الجدل إلى رفع العصي وإسالة بعض قطرات من الدماء لا مناص منها في مثل هذه الظروف . وانتهى الأمر بأن أخرج أحد الساعين في الخير ريبالا من جيبه واستأجر سيارة من تلك السيارات التي تمر بالطرق الزراعية ، وحكم القاضى في هذه القضية ثم صاح :

— « انتهينا من الفرحة » و « الدخلة » على خير ! ... غيره ! فنادى المحضر بصوته الممتلئ « قضايا المحاييس » وذكر اسما من الأسماء ، فدوت صلصلة السلاسل ونهض من بين لا بسى الخيش رجل فك الحارس قيده . ونهض من بين المحامين أفندى ذو بطن كأنها القرية المملوءة وقال : « حاضر مع المتهم » . « فقلت في نفسى » : تلك قضية لها محام لن يتركنا قبل أن يفرغ في رؤوسنا ما شاء بحجة حرية الدفاع . فلأغمض عيني منذ الآن فرأسى أحوج ما يكون إلى الراحة بعد سهر الليل . وسمعت القاضى يقول للمحبوس :

— أنت متهم بأنك سرقت « وابور غاز » ...

— أنا صحيح لقيت الوابور قدام باب الدكان . لكن لا سرقت ولا

نهبت ...

فالتفت القاضى إلى المحضر قائلا : « هات الشاهد » فحضر رجل على

رأسه لبدة بيضاء وعلى منكبيه « دفية » فحلف اليمين وقال إنه أشعل « وابور الغاز » ليهبئ الشاي لبعض « الزبائن » الجالسين داخل الحانوت . فهو بدال ريفي صغير يبيع السكر والبن والشاي والتبغ ويجمع لديه أحيانا بعض الناس كأنهم في شبه مقهى ، ولقد وضع الوابور مشتعلا عند عتبة الباب في الطريق ودخل يحضر الإبريق وما إن عاد حتى رأى المتهم قد حمل الوابور بناره وجرى به . وجعل الشاهد يسهب ويستشهد بمن حضر ومن جرى معه خلف السارق ، والقاضي مطرق وقد علمت من هيئته أنه يفكر في شيء آخر . وفجأة نظر إلى وقال كالمخاطب لنفسه : « أنا حلفت الشاهد اليمين ؟ » فما تمالكت أن صحت في ضيق : « سبحان الله ! أنا سمعت الشاهد حلف » ، فقال لي القاضي : « أنت متأكد ؟ » فشعرت أن روحى تفارقتني فهمست : « تحب أني أحلف لك أنه حلف ؟ » فاطمأن القاضي بعض الاطمئنان وأصغى إلى بقية الشهود في صمت وانتباه . ولم يطبق المتهم صبراً فنهض بغتة كالمستغيث :

— يا حضرة القاضي ! في الدنيا « حرامى » يسرق « وابور جاز »

بناره ١٩

فأسكته القاضي بإشارة من يده قائلا :

— تسألنى أنا ١٩ أنا عمري ما اشتغلت « حرامى ! » ونظر إلى منصة الدفاع ، فقام المحامى عن المتهم يصيح قائلا : « يا حضرة الرئيس ! نحن لم نصادف وابور ، ولا رأينا وابور ، ولا مررنا في طريق به وابور ... والقضية ملفقة من ألفها إلى يائها ... » وأراد المحامى أن ينطلق في هذا الكلام وأن يصول ويجول . ولكن القاضي قاطعه :

— حلمك يا أستاذ . المتهم نفسه معترف بأنه صحيح لقي الوابور قدام

باب الدكان .

فضرب الأستاذ وجه المنصة بقبضته وقال :

— هذا سوء دفاع من موكلى .

فأجاب القاضى فى هدوء :

— غرض حضرتك أن أصدق حسن دفاعك وأكذب الحقيقة التى

نعلق بها موكلك أمامنا جميعاً !

فاحتج المحامى ورفع عقيرته وقد بدا إلى أن كل همه أن يجلجل صوته فى الجلسة ، وأن يتصبب عرقه فى مسحه بمنديله وينظر إلى « زبونه » كأنما يريه الجهد الذى يتكبده من أجله والعناية التى يبذلها فى سبيله . وكان التعب والضيق والحبس بلا حراك أمام منصتى قد صيرنى شخصاً لا يعنى ولا يفهم ما يدور حوله فأخفيت وجهى فى ملف من ملفات القضايا واستسلمت للنعاس .

١٣ أكتوبر ...

انتهت الجلسة عند العصر ، وقد خرجت منها محطم الأعصاب . وما كدت أفترق عن القاضي حتى وجدت في وجهي أحد العساكر يحمل أكداساً من « نماذج » تنفيذ الأحكام ، يقدمها إليّ للتوقيع . فوضعت إمضائي دون وعي على هذه الأوراق التي ليس لها آخر ، وإمضائي الآن لا يمت بصلة الشبه إلى اسمي ، فقد أصبح مع السرعة وكثرة التوقيع خطأ أو خطين ألقيهما حيثما اتفق . وما إن فرغت من ذلك وقد تصيب مني العرق حتى سمعت من يضرب الأسفلت بحذائه ويرفع كفه بالسلام :

— التحقيق منتظر فوق في قضية ضرب النار ١

ولكن للقوة الآدمية حدوداً . ولم أتبلغ بلقمة ولم أطرح جسمي على فراش منذ ... منذ أمس الأول . فما تمالككت أن قلت :

— ضرب نار في عينك ؟ لو كنا عسكر في الخنادق ، أو في حرب

الدردييل لرأفوا بحالنا وخافوا على صحتنا ...

لكن ما ذنب الخفير أوجه إليه هذا الكلام ؟ فتركته وسرت في طريقي ، وصعدت إلى مكتبي في الطابق الثاني فألفيت ببابه الفتاة « ريم » منتظرة مع الحراس وعلى مقربة منها الشيخ عصفور بعوده الأخضر ؛ ولست أدري ماذا ينتظر مع المنتظرين ؟ وأنعشني قليلاً مرأى الفتاة كما ينتعش العشب الذابل بقطرات الندى . ودخلت حجرتي فرأيت المأمور والمعاون وكاتب التحقيق جالسين في نشاط المستيقظ من نوم مريح ، فعلمت أنهم آتون من منازلهم وأنهم الآن على استعداد لقتل الوقت في هذه القضية ، فذلك خير من لعب « الطاولة » في النادي

أو مص القصب أمام الأجزاء الخائفة . أما أنا فإنسان لا يصلح الآن لشيء إلا للرقاد سبع ساعات متواليات . فأعلنت الحاضرين برغبتى فى تأجيل التحقيق إلى الغد ، فأذعنوا . ولكن بدا مشكل لم يفطن إليه أحد : هذه الفتاة أين تبيت ليلتها ؟ إنها الآن على مسافة بعيدة من قريرتها . وليس من الرأى أن تعود لتأتى مع الصباح . فقد يتصل بها بعض من يعينهم أمر القضية من الأهالى والشهود فيلقنونها مالا يستقيم مع الصدق والحق ، وهى لا تعرف أحداً فى هذا المركز ولا أهل لها به . هنا صاح المأمور كمن وجد الحل السعيد الموفق :

— المسألة بسيطة . البنت تنام فى بيتى للصباح . فالتفتنا إليه جميعاً فى شبه ذعر ؛ ثم تمالكنا أنفسنا ، ولست أدرى كيف دب فىنا نحن الحاضرين نفس الشعور فى نفس الوقت . حتى الشيخ عصفور ، وقد زحف خلفى ودلف إلى الحجرة ، ظهر فى عينيه القلق . وكان الموقف دقيقاً . إن أى اعتراض منا معناه الرية فى سلوك حضرة المأمور :

العجيب أن الحاضرين كلهم قد أظرقوا ووجموا ، وأراد المأمور أن يدخل علينا الاطمئنان فقال :

— أنا غرضى أنها تكون فى محل أمين بين زوجتى وأولادى . ولم أجد بداً من الإذعان . وتركت المكان وانصرفت إلى منزلى . وتناولت شيئاً من الطعام على عجل . ثم أويت إلى فراشى واستغرقت فى نوم لم أصح منه إلا عند منتصف الليل . قمت عطشان فشربت جرعة من « القلة » الفخار بالنافذة وتذكرت الفتاة وتخيلتها فى بيت صاحبنا فنفر من رأسى النوم . وتمنيت لو يقع الآن حادث أقوم له ومعى المأمور ولكن الحوادث كالقسط إذا ناديتها رفضت الجيء وإذا طردتها جاءت

تتمسح بالأقدام . ولم أجد ما أصنع . وخالجتني ريب وشكوك . وطال الليل في نظري وسمج وتمنيت طليوع النهار . وأردت أن أشغل فكري بتدوين يومياتي فجمد القلم في يدي . ووقع بصري على أكوام من قضايا الجرح والمخالفات والعوارض من « إيراد » اليومين السابقين أرسلها إلى كاتب الجدول لقراءتها وتقييمها ووصف التهمة وتقديمها إلى الجلسات . فلم آتس عندي ميلا إلى العمل .. فاتجهت إلى النافذة وفتحتها واستنشقت هواء الليل الرطب ، ونظرت إلى النجوم تشرف على هذا السكون الشامل في هذا الريف النائم ، كأنها عيون ساهرة مطلعة على خفايا الأشياء .

فجأة خطر لي أن أرتدى ثيابي وأن أنزل إلى الطريق وأدور حول منزل المأمور . ما هذا الجنون ؟ أنا أفعل ذلك ؟ وإذا (ضبطني) خفير الدرك ؟ إنه قد يعرف شخصي فيعتذر . ولكنه سيخبر الناس ويشيع الخبر وتكون الفضيحة . لا مفر إذن من انتظار الصباح وما يأتي به ...

على أن الله لطف بي آخبر الأمر فأرسل إليّ إشارة تليفونية ، طالعها في الحال فإذا هي واقعة تافهة مما لا نقوم لمثلها بالليل :

« ... بمرور قطار البضاعة نمرة ٣٠٩ خط الدلتا الضيقة عند الكيلو ١٧ أثناء عمل مناورة وجد مسمار حدادي على الشريط والحادثة بفعل فاعل مجهول .. إلخ ... » وقد أشر المأمور في ذيل الإشارة بانتداب حضرة معاون الإدارة للانتقال وإخطار البك وكيل النيابة للعلم . ومعنى ذلك أنه لن يقوم ولا يريد لي أن أقوم ولكن كيف أضيع هذه الفرصة التي هبطت من السماء ؟ ليس أحب إلى الليلة من أن أقلق راحتى وراحة حضرة المأمور . وارتديت في الحال ثيابى وأمسرت

— ٤٢ —

بإحضار السيارة ومررت بمنزل صاحبنا . وأطلقت عليه من يوسع بابه
طرقاً ويخبره بانتقالى . فأطل الرجل من نافذته صائحا :

— مسمار صغير نقوم له كلنا بالليل !

فأخرجت رأسى من نافذة السيارة :

— لو كانت إبرة . ما دامت الحادثة بفعل فاعل أصبحت جنابة .

لاحظ أنها جنابة تعطيل قطار ، أخطر جنابة فى الدنيا . لا بد من حضورك
يا حضرة المأمور .

— لا بد ... أنا اتدبت معاون الإدارة .

— لا بد من حضورك شخصيا .

— الليلة ... مستحيل ... أنا الليلة ... تعبان ...

— كلنا فى التعب سوا : لكن الواجب يحتم علينا ... !

فأطرق المأمور لحظة مفكراً فى ضيق وامتعاض ، ورأى عزيمتى
واستأنتى ، وخشى أن يعارضنى فى أمر متعلق بالعمل . فأذعن وطلب إلى
الانتظار هنيهة حتى يرتدى ثيابه ، ونزل وجلس إلى جانبى فى السيارة وهو
ينفخ من الغيظ . وتنبهت إلى غيبة الشيخ عصفور . إذ على الرغم من
صوت البوق لم يبد له أثر ؛ وكان فكر المأمور مشغولا هذه المرة ، فلم
يفطن لغياب الشيخ ، فلقد مضى فى إطراره برهة ثم قال :

— أى نعم ! الواجب يحتم علينا .. لكن يعنى ... مسمار ؟!

فأغمضت عينى حتى لا ينتظر منى جواباً ، فاستطرد :

— الله يمسيه بالخير وكيل النيابة سلفك . كان يسأل فى قضية القتل

شاهدين فقط لا غير ويقفل محضره ويميل على ويقول : « هو القتل أبونا

والأخونا ؟ قم يا شيخ نبيل ريقنا » !

ولم أعقب على كلامه بحرف ، ولم أنبس طول الطريق بكلمة حتى بلغنا الكيلو ١٧ . ووجدنا عمال الدريسة وقطار البضاعة وسائقه . وقدم إلينا نائب العمدة المسمار ، وأشار إلى عربة محملة بأكياس من القطن كادت تخرج عن القضيب ؟ فتناولت المسمار بين أصابعي وجعلت أفحصه ، والمأمور خلفي يقول باسم :

— « كان العطشجي فين لما الواهور وقع انكسر ، فعلمت أنه يهزل ، وأنه يشير إلى تلك الأغنية التي كانت شائعة منذ ثلاثين عاما يوم كانت شفيقة القبطية تجلس على عرش الطرب . وسمع السائق تلك العبارة وحملها محمل الجد فتقدم يقول :

— لا حصل كسر ولا وقوع يا فندم ! وأنا ساعة الحادثة كنت جنب الفرملة ، وربطت في الحال ...

ومضى يسرد آراءه قائلا : إن أهل هذه المنطقة بسطاء العقول ولعلمهم من أصلاب تلك القرية التي « عزمت القطار » في أول ظهوره وقدمت إليه الطعام والشراب ، ولا يبعد أن يكون أحد هؤلاء الأهالي قد دفعه العبط أو حب الاستطلاع أن يضع هذا المسمار على الخط الحديدي ليرى ما يصنع القطار ، وكيف يتصرف ، وكيف يقع على جنبه أو على وجهه . وتقدم عامل دريسة فقال : إن المسألة ليست مسألة بساطة أو بلاهة . إنما هو انتقام من الشركة فالأهالي في هذه الجهة يعيشون على استخراج الحصني من الجبل ونقله على الحمير والجمال وبيعه للمقاولين ، فجاءت شركة سكة حديد الدلتا الإنجليزية فمدت هذا الخط حديثاً إلى الجبل . وخصت نفسها بهذا المورد وانتزعت بذلك هذا الحصني من أفواه هؤلاء الجياع المساكين ، وسواء أكان هذا هو السبب أم ذلك فإن الفاعل هنا أيضاً

— ٤٤ —

غير معروف ولا ينتظر معرفته . وقد انتهينا من الأمر بأن وضعنا المسمار داخل « حرز » وختمنا عليه بالشمع الأحمر وأرقناه بالأوراق .. إلى آخر هذا الكلام الرسمي الذى هو كل بضاعتنا ، وكان الندى قد تساقط على رؤوسنا فرأى المأمور فتح المحضر فى « دوار » العمدة فسألت عن المسافة بيننا ، وبينه ، فرد نائبه قائلاً :

— « فركة كعب » يا حضرة البك !

فصدقناه ، وسرنا على أقدامنا حتى كادت مفاصلنا تنخلع ، وما وصلنا حتى أذن الفجر فى زاوية الناحية ، وتركت المأمور « يسبخ » لنائب العمدة على « فركة » الكعب ، وانهمكت فى فتح المحضر وسؤال الشهود حتى فرغت منهم جميعاً ، وأردت أن أختم محضرى ، وإذا لى أرى حركة نصب مائدة وإعداد طعام وحضرة المأمور قائماً قاعداً ينظر فى الخوان ويدخل ويخرج دون أن أعلم ما يشغله من الأمر ، وأخيراً سمعته يقول للعمدة فى ناحية :

— اسمع يا عمدة ! البك الوكيل لا يجب الخرفان على الصبح ولا الديوك ولا حاجة أبداً ، ولكن لا بأس من كم زغلولة مدفونة فى الأرز ، والقراقيش إياها والفطير المشلتت : وإن كان عليه كم كتكوت محمر مفيش ضرر ، واللبن الرايب طبعاً شىء مفيد للصحة ، ولا بأس من كم بيضة مقلية فى القشدة ، كفاية ، إياك يا عمدة تعمل حاجة زيادة ، البك الوكيل أكلته ضعيفة ، إن كان عندك عسل نحل بشمعه لا بأس . قرصين جبنة ضانى لا مانع ، طبق كعك وغريبة ... الغرض حاجات خفيفة لطيفة وانت سيد العارفين !

أطرقت لهذا الكلام واحمر وجهى ولم أدر ما أصنع ، ورأيت الخير فى أن

— ٤٥ —

أسرع بالانصراف . فطويت أوراقى على عجل . ولكن عين المأمور
لحظتنى وأدرك غرضى . فجاءنى مسرعاً يسألنى :

— التحقيق انتهى ؟

— من زمان !

فنظر إلى المائدة التى لم يوضع عليها شىء بعد ثم نظر إلى :

— جميع الشهود أعطوا أقوالهم ؟

— جميعهم .

— ولا شاهد واحد فاضل ...

— ولا ربع شاهد .

فتركنى وخرج سريعاً ثم عاد بعد قليل يجذب أحد الأهالى من

« حزامه » ودفعه أمامى دفعاً وأشار إليه وقال :

— شاهد مهم قوى ، عنده أقوال .

فأبدت ارتياحى فى قيمة كلام هذا الرجل وأظهرت رغبتى فى الاكتفاء

بمن سألت من شهود . ولكن المأمور ألح فى الرجاء أن أصغى إلى هذا

الشاهد أيضاً فإن لديه معلومات ذات أهمية عظمى . فنشرت ورقى من

جديد وما كدت أبدأ فى إلقاء السؤال ، حتى برز العمدة وخلفه خدمه

يضعون الطعام على المائدة .. وارتفع صوت سيد الدار يدعونا إلى

الفتور ... فاعتذرت بضعف صحتى وإمساكى عن الأكل عادة فى

الصباح .. فانطلق من العمدة قسم غليظ ... وتواطأ فى الحال مع المأمور

على جملى من مكائى حملا ... وإذا بى أجد نفسى فى صدر المائدة ...

فأذعنت ، وجعلت أنظر ساعة إلى هؤلاء المخلوقات وبينهم المأمور ،

يأكلون وينهشون ويزدردون وقد انشغلوا بأنفسهم فلم يفتنوا حتى إلى قلة

أكلى ؛ وقمت من بينهم متسللا بعد قليل وجلست في مكاني الأول أنتظر تارة وأتصفح محضرى تارة إلى أن فرغوا من أمر بطونهم وأتوا على ما فوق الخوان وقاموا يمسحون أيديهم في غطاء المائدة الذى لم ير وجه الصابون منذ عامين وأقبل علىّ المأمور يتجشأ ويقول :

— أظن نرجع ما دام التحقيق انتهى ...

فأشرت إلى الشاهد الذى كان قد جاءنى به وقد نسيه الآن فيما يظهر :

— لما نسأل الشاهد المهم ... !

فأجاب المأمور من فوره :

— لا مهم ولا حاجة ...

وتركنى واتجه إلى الفلاح وقال له :

— انت يا ولد عندك معلومات ... ؟

فأجاب الفلاح :

— « لع » ...

أى : لا ، فالتفت المأمور إلى قائلا :

— جحش الله في برسيمه ... ! لا عنده معلومات ولا يحزنون ... قم

بنا يا سعادة البك نرجع بلدنا ... !

ونهنضنا عائدين ، وقد ارتفعت الشمس ... ولم نكد نبلغ دار المركز

حتى أقبل علينا « البلوكامين » يحمل إشارة من المستشفى الأميرى أن

المصاب « قمر الدولة علوان » قد أفاق من غيبوبته والآن يمكن

استجوابه ، فأسرعنا إلى المستشفى لا نلوى على شيء ، خشية أن يعود

المصاب إلى الإغماء أو سوء الحال ، فلا نستطيع أبداً أن نستخلص من بين

شفتيه سر الحادث ...

ودخلنا المستشفى وسألنا عن « الحكيمباشى » فقيل لنا إنه فى قاعة العمليات ، فسرنا فى الردهة الموصلة إليها ، فقابلنا تلك الأسيرة الصغيرة والمحفات التى تجرى على عجلات فوق الأسفلت كأنها عربات الجمالين فى المحطات الكبرى ، ورأينا تلك المبخار وأدوات التعقيم تدفع على بكر ويتصاعد منها البخار، والمرضون فى هرج ومرج باردتهم البيضاء يدفعون تلك العجلات التى تحمل أجساما فى طريق الفناء ، ويدخلون بها تلك القاعة الرهيبة ويخرجون دون أن يبدو على وجوههم أثر اهتمام لموت أو حياة ، فوقفت قليلا وقد شرد خاطرى وخامرني إحساس من يقف فى المحطة بين القطر . نعم ، أو لست الساعة فى تلك المحطة التى يسافر منها المريض إلى العالم الآخر ؟ وحانت منى التفاتة إلى باب المستشفى الكبير ورأيت العسكرى المكلف بالحراسة يطرد زرافات النساء المجتمعات فى ثيابهن السود ، و « طرحهن » الزرق وأصواتهن التى يقطعها عويل القلق فعلمت أنه سيلقى إليهن بجثة بعد قليل . فإنهم فى كل يوم يلقون خارج أسوار هذا المكان بجثة أو جثتين ليفترسها الحزن الرابض بالباب ذو الناب الأزرق فى لون « النيلة » والمخلب المعفر بالطين والتراب .

وفتح باب قاعة العمليات وخرج ممرض يحمل دلوأ فيه دم سائل ومتجمد وقطع من اللحم كأنها أحشاء خروف ، فنظرت فى ذلك ، فقال الرجل إن هذا خرج من بطن امرأة هى الساعة فوق المشرحة تحت البنيج ، فجمدت فى موقفى . وبادر الأمور وطلب باسمى مقابلة الحكيمباشى فى الحال . فذهب الممرض وعاد يفتح لنا باب قاعة العمليات ، فتجلدت ودخلت وخلفى من كان معى فقابلنى الحكيمباشى بابتسامة وهو ما زال منحنيأ فى معطفه الأبيض على شىء فوق المشرحة ، وقد شمر عن ذراعيه

وفي يده أداة كأنها « الكماشة » وحوله رهط من أصدقائه غير الأطباء عرفت منهم بعض الأعيان في ملابسهم العادية . فدنوت ونظرت إلى الذى بين يديه فإذا هو جسم فتاة قد شق بطنها شقاً طويلاً من الصدر حتى أسفل البطن ، وإذا « الكماشة » في يده تجمع الجلد الذى انشق وتخيطة بشيء كأنه المسامير الصغيرة ، والطبيب يفعل ذلك في سرعة غريبة وهو يثرثر مع ضيوفه مازحاً كأنه « حاو » يفاخر بخفة يده ومهارة صنعته . ونظرت في وجه البنت الشاحب وهي كالليتة ، ثم إلى جلدة بطنها وقد رشقت بالمسامير في نصف طويل كأنها جلدة حذاء في يد الإسكافي ؛ فشعرت بدوار في رأسي ونخفت أن أسقط ، فاعتمدت على جانب المشرحة . ولحظ الطبيب اصفرار وجهي فترك المريضة وحدق في وجهي قلقاً فأسرعت وخرجت من القاعة وأنا أقول له في صوت لم يخرج إلا نصفه من حلقى :

— منتظر يا دكتور بعد العملية .

وسألني الدكتور عما بي فلم أستطع التعليل . إني قد شاهدت كثيراً من عمليات التشريح ، وطالما رأيت جثثاً تقطع أمامي وبطوننا تبقر فلم أتأثر ، ولكنها كانت أجساداً لا حياة فيها ؛ أتراني شديد التأثر لمراى الأجسام الحية تعامل معاملة الجمادات ؟ أم أنها فضلة من رائحة البنج عبق بها جو قاعة العمليات فبلغت خياشيمي إذ دنوت من جسم الفتاة ؟ وأعادني الهواء الطلق خارج القاعة إلى نشاطي وجلسنا ننتظر في مكتب الحكيمباشي ، ونشرب قهوة طلبها لنا « الباشتمرجي » . إلى أن حضر رئيس الدار فقادنا مرحباً إلى « عنبر » المصاب . وجلسنا معه خلال ممرات ازدحمت بالأسرة إذ لم تكف « العنابر »

— ٤٩ —

لإيواء هذا القدر من التعساء . ورأينا المرضى الناقهين من أصحاب
« الزعايط » الزرقاء يتناولون في نهم حساءهم في أوان صغيرة من
« الألومنيوم » ، وينظرون إلينا ومعنا الحكيمباشي كما ينظر القرودة في حديقة
الحيوانات إلى الحراس مع كبار الزائرين .

ووصلنا إلى سرير « قمر الدولة » ، فوجدناه ممدداً لا يتحرك ونزع
الحكيمباشي من رأس السرير تلك الرقعة التي يدون فيها تطورات مرضه
وقرأ علينا تشخيصات طبية لم أحفل بها الساعة وقلت :

— الغرض ، يمكننا استجوابه حالا ؟

أجاب الطبيب في صوت خافت :

— أظن مع الاختصار الكلي .

ثم دنا من المصاب وناداه في هدوء ففتح قليلا عينين ذهب بريقهما
وكأنهما لا يريان ولا يشبتان على شيء بعينه . فاقتربت من الرجل وسألته :

— يا قمر الدولة ! من ضربك ؟

فلم يجب . فأعدت عليه السؤال ففتح شفثيه ولم يقل شيئاً . فألححت
عليه فبذل جهداً ظاهراً وقال كلمة واحدة :

— ريم !

فدهشت قليلا والتفت يمنة ويسرة فوجدت المأمور وتسكرتير التحقيق
شأنهما شأني في الاهتمام بالأمر والعجب له فنظرت في وجه المصاب
وقلت :

— وضع غرضك يا قمر !

فلم يجب .

— قصدك إن ريم هي نفسها ؟ ...

(يوميات نائب في الأرياف)

— ٥٠ —

فلم يبد حراكا ...

— يا قمر ، يا علوان ، تكلم . لا بد أنك تتكلم . كلمة واحدة .
الضارب ! من الضارب ؟
ولكننا نطلب المستحيل . فقد أغمض عينيه وقد تفصد جبينه عرفاً ،
فجذبني الحكيمباشي من يدي بعيداً وقال :

— كفاية !

فنظرت إلى المأمور ياساً .

— كفاية !؟

وهل ظفرنا نحن بشيء ؟ لقد كان موقفنا عند دخولنا أوضح منه
الآن . إنها كلمة لفظها هذا الفم الجاف بعد جهد ، ليته لم يلفظها ...

١٤ أكتوبر :

تركت المأمور يذهب إلى شأنه . وعدت إلى مكتبي بدار النيابة وعلم المساعد بعودتي فحضر وهو كالمشتاق إلى رؤيتي . ولكنه عاتب على إغفالي إياه في واقعة الليل ، فتنهت إلى أنى حقيقة نسيت كل النسيان . إن اهتمامي باصطحاب المأمور تلك الليلة قد ألهاني ولا شك عن كل شيء آخر . ومع ذلك فهي حادثة تافهة لم يستفد منها غير بطن حضرة المأمور . ولم يقع ضررها إلا على جيب حضرة العمدة آه لهؤلاء العمدة ! لشد ما أرتي لحالم ! وظهر « فراش » المحكمة الحاج خميس . فطلبت إليه كوباً من الشاي الخفيف . والتفت إلى مساعدي فأقبل عليّ يحدثنى كمن يتحدث لمجرد الحديث ، وكأني به جوعان كلام . إن الوحدة قد كادت تقتله أثناء غيبتى عنه . لقد سئم الريف . إنه لا يجد هنا قهوة واحدة يليق أن يدخلها مثله . اللهم إلا دكان ذلك البدال الرومي « طناشي » وضعت أمامه مائدتان من الخشب وكرسيان من القش . وقد أطلق عليه الأهالي اسم « الخمار » وحتى هذا الرومي قد ارتدى جلباباً كجلباب الفلاحين فلم يعد شيء ينم على أنه « أفرنجي » غير لون العينين والشعر . أين يتنزّه ؟ وأين يتفق وقته ؟ هذا الشاب الذي جاء من العاصمة منذ أيام حيث الأنوار والملاهي والضجيج ؟ إنه الآن لا يكاد يرى غير مبان قليلة أكثرها متهدم . وغير هذه « الجحور » المسقفة بحطب القطن والذرة يأوى إليها الفلاحون . إنها في لونها الأغبر الأسمر لون الطين والسماء وفضلات البهائم ، وفي تكديسها وتجمعها « كفوراً » و « عزباً » مبعثرة على بسيط المزارع ، لكأنها هي نفسها قطعان من الماشية مرسله في الغيطان . هذه القطعان من البيوت التي تعيش في بطونها ديدان من الفلاحين المساكين هي

كل ما تقع العين عليه في هذه البقاع . ويزيد في كربه هذا السكون يهبط على البلدة منذ الغروب . فلا يسمع بعدئذ غير خوار الجاموس ونبح الكلاب ونهيق الحمير ، ونحيب السواق والشواديف والكباسات ، وأصوات بعض الأعيرة النارية يطلقها في جوف الليل الخفراء الخصوصيون أو النظاميون ، أحياناً إرهاباً للغير أو تشجيعاً لأنفسهم . إن مساعدي يريد دواء لهذا الضيق . وهل من دواء للريف غير الزواج أو السير المعوج أو المطالعة وتحرير المذكرات كما أفعل أنا كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً ؟ وفكر صاحبي في الاختلاف إلى النادي ، إنه لا يعلم شيئاً عن نادي هذا المركز . إنه اسم يطلق على حجرة في منزل عتيق يصعد إليها بتسلم من خشب . وهي تضاء بمصباح غازي أي « كلوب » وهذا « الكلوب » هو وحده الشيء الجدير بالاحترام في الحجرة . أما أهل النادي فهم بالطبع رجال الإدارة وطبيب المركز وبعض الأعيان والموظفين وصاحب الأجزاخانة . ولا يشغل هؤلاء في ذلك المكان غير لعب الورق و « الطاولة » واغتياب الناس فهل يليق بممثل النائب العام في هذا المركز أن يندس في هذه الزمرة و لقد قلت لمساعدتي إلى « شخصياً » أفضل أن يكون عضو النيابة بعيداً عن كل هذا إذا كان يريد أن يجعله الجميع . وأنا لن أنسى ذلك اليوم الذي دعاني فيه رجال الإدارة إلى حفلة عشاء في ذلك النادي مع القاضي المقيم تكريماً لزميل لهم منقول . ولم أستطع الاعتذار فذهبت . وإذا زجاجات الوسكى على المائدة بجوار الطعام ، وقد ملأوا كأسى وكأس القاضي ، ولم يفطن القاضي لنفسه فشرب وأكثر ، وجعل يثرثر ويضحك حيث لا موضع للكلام والضحك وعندئذ مال على الأمور وقد سكر هو أيضاً وألقى في أذني ضاحكاً « البك القاضي فقد وقاره ! » فلم أرد أن أسمع أكثر

من ذلك . فانسلت منصرفاً إلى بيتي في هدوء دون أن يشعر بي هؤلاء المتخبطون في كؤوسهم . منذ ذلك اليوم وأنا لا أضع قدما في هذا النادي . واقتنع مساعدي بكلامي ، وأردت أن أزيده بيانا ليزداد حرصا ، ولكن الحاج خميس دخل حاملا كوبا لم يكده يقع نظري عليه حتى صحت .

— ما تسقيني أحسن حبر « كويية » وتخلص !

— صلّ على النبي يا سيدنا البك ... ! أنا بقي لي عشرين سنة فراش محكمة ، وورد عليّ أصناف الأهالي والموظفين تصدق بالله ... ! ما ينفع في المحاكم إلا شاي مرطعم « الفورنيه » ؟
فترددت قليلا ثم لم أجد مناصاً وقلت :

— شاي المحاكم وشغل المحاكم كله مر والسلام ، هات !
ووضع الرجل الكوب الزجاجي أمامي وانصرف . وما كدت أرشف رشفة حتى فتح الباب ودخل عبد المقصود أفندي رئيس القلم الجنائي بروحه الذي لا أستخف له ظلًا وقال :

— عندنا من نوع التلبس أربع قضايا .
— هات !

فذهب وأرسل إلى العسكري القادم « بالمحاضر » والمقبوض عليهم . وأخذنا نطالع الأوراق قبل أن نستدعي أمامنا المتهمين . وجعلت من نصيبي ثلاث قضايا واستصغرت ملفاً ألقيت عليه نظره سريعة وأعطيته مساعدي وأنا أقول له : « سرقة كوز ذرة ، لن نعثر لك على أسهل من مثل هذه للسرقة . سل هذا المخلوق فستجده معترفاً في أمان الله ! » . وبدا الاضطراب قليلا على المساعد ، فهذه أول مرة يستجوب فيها متهماً .

وتناول من يدي المحضر . وجعل يقرؤه كلمة كلمة . ويعيد قراءة هذه « القسائم » التي لم تزد على الخمس . وفرغت أنا من أمر نصيبي البالغ أضعاف ما عنده وهو ما زال منهمكاً في إعداد ملخصات وافية ، وملخصات للملخصات ، وأسئلة معدة لإعداداً كأنها قنابل ستلقى في صدر سارق « كوز الذرة » . فكنمت ضحكى ، أنا أيضاً في مستهل حياتي القضائية كنت أفعل فعله . ولقد قسا على القدر أشد مما قسا على هذا الشاب ، فنكبتني بقضية تزوير معقدة كانت هي أول عهدي بالتحقيق . ولست أنسى اضطرابي وقتئذ وقد مثل أمامي المتهم المزور بطول وذلاقة لسانه واعتياده المشول أمام القضاة ؛ فذهبت الأسئلة المجهزة من رأسي ولم أدر ما أقول ، وانتظر الرجل واقفاً في هدوء أن أفتح فمي أو يفتح الله عليّ بسؤال ، وتصيب مني شبه عرق وأنا أرى المتهم أحسن مني حالاً وأربط جأشاً وأقوى امتلاكاً لأمره ، وخيل إليّ أنه يسخر مني في دخيلة نفسه . وكان كاتب التحقيق رجلاً قديماً ذا مران طويل ، صادف في حياته ولاشك عشرات من المساعدين الجدد أمثالي . عرف ما بي فأسرع يعاونني ويلقنني ما ينبغي أن أبدأ به من أسئلة وأنا أتقبل منه المعاونة بأنفة وكبرياء دون أن أظهر حاجتي إلى تدخله . وأمثال هذا السكرتير الهرم من ذوى الحق المغموط والفضل المجهول مثيرون ، وقد سمعت أحدهم يقول لي مشيراً إلى بعض من كبار رجال القضاء : « علمناهم الشغل ومشوا وارتفعوا وبقوا قضاة ومستشارين ، والواحد منا واقف في مطرحه لا يكبر ولا يصغر ، زى جحش السبخ » تذكرت كل هذا وأنا أنظر إلى وجه مساعدي . ورأيت أن أتعهد خطاه الأولى بنفسى ، فطلبت إليه أن ينحى جانباً هذه الملخصات ، وأن يضغط

— ٥٥ —

بأصبعه على الجرس ففعل ، وظهر الحاجب بالباب فأمرته بإحضار المتهم الأول ، فدخل فلاح كهل قد برز من صدره شعر أزرق أشيب كأنه شعر ضبعة مسن ؛ وقلت للمساعد أن يوجه ما يحضره من أسئلة ولا يخاف ، وأنا أعينه إذا توقف ، فاحمر وجه الشاب وتردد ، ثم تجلد ونظر إلى المتهم وسأله :

— أنت سرقت كوز الذرة ؟

فأجاب الشيخ لفوره من جوف مقروح :

— من جوعى !

فنظر المساعد إلى وقال فى لهجة الانتصار :

— « اعترف المتهم بالسرقة » .

فقال الرجل فى بساطة :

— ومَن قال إني ناكِر ، أنا صحيح من جوعى نزلت فى غيظ من

الغيطان سحبت لى كوزا ...

ووقف القلم فى يد المساعد ، ولم يعرف ماذا يسأل بعد ذلك ، والتفت

إلى يستنجدنى ، فنظرت إلى الرجل سائلا :

— سين ، يا رجل لماذا لا تشتغل ؟

— جيم ، يا حضرة البك هات لى الشغل وعيب على إن كنت أتأخر .

لكن الفقير منا يوما يلقى ، وعشرة ما يلقى غير الجوع .

— انت فى نظر القانون متهم بالسرقة .

— القانون يا جناب البك على عيننا وراسنا . لكن برده القانون عنده

نظر ويعرف إني لحم ودم ومطلوب لى أكل .

— لك ضامن يضمنك ؟

— أنا واحد على باب الله .

— تتدفع كفالة ؟

— كنت أكلت بها .

— إذا دفعت يا رجل خمسين قرشا ضمان مالي يُفَرِّج عنك فوراً .

— خمسين قرشاً وحياة راسك أنا ما وقعت عيني على صنف النقديّة

من مدة شهرين . التعريفة نسيت شكله ، ما اعرف إن كان لحد الساعة

(مخروم) من وسطه والا سدوه .

فنظرت إلى مساعدي وأملت عليه نص القرار :

— « يجبس المتهم احتياطياً أربعة أيام ويجدد له ويعمل له فيش وتشبيهه »

اسحبه يا عسكري !

فقبل الرجل كفه وجهاً وظهرأ حامداً ربه :

— وماله . الحبس حلو . نلقى فيه على الأقل لقمة مضمونة . السلام

عليكم !

وخرج الرجل يدب وقد وضع في معصميه القيد . واطمأن مساعدي

واستراح باله بذهاب متهمه ، وطلبت القضية التالية . فظهر العسكري

ومعه آخر وفتح باب مكتبي على مصراعيه ، وجذب داخل الحجرة أكثر

من ثلاثين رجلاً وامرأة وولداً قد شُدُّوا في حبال الليف ، إذ لم يجدوا في

المركز لكل هذا العدد قيوداً حديدية . فما تماكنت أن صبحت

لمنظرهم :

— الله أكبر ! مواشى طالعة سوق السبت ؟ حل الحبال يا عسكري !

فقال الحارس وهو يحل بأسنانه عقدة حبل :

— فتشنا يا سعادة البك بيوتهم وجدنا فيها ممنوعات . وباقي غيرهم

من أهل الناحية تحت التفتيش والقبض بمعرفة حضرة الملاحظ وأورطة
الهجانة !

فأدرت بصرى في هؤلاء الآدميين . واستعدت في مخيلتى ما قرأته
الساعة عن تهمتهم في الأوراق التى أمامى وقلت :
— ممنوعات !

فاستدرك الحارس :

— الملبوسيات يا فندم .

نعم . إن ما قرأت الساعة هو أن سيارة كبيرة كانت تحمل أكياسا
ضخمة ، مملوءة بمختلف الملابس القطنية والصوفية من معاطف وستر
وسراويل ، وكذلك أنواع من الأحذية الجلدية لحساب متجر فى القاهرة
من المتاجر الشهيرة ، وكانت تجتاز ليلا بكل هذا جسر الترعة المحاذية لدائر
الناحية ، فسقط منها فى الماء كيس كبير مفعم بألوان الملابس ، ولبث
الكيس فى أعماق الترعة حتى انخفض منسوبها وانحسر الماء عن البضاعة
فهرعت تلك البلدة العارية إلى الكنز الذى لا يشابه كل الكنوز
وتسابقت الأيدى إلى الكيس الراقد فى الطين تجذب من بطنه ما تصل إليه ،
فإن كان سروالا من الصوف لبس فى الحال فوق الجلباب الأزرق وإن كان
معطفا من الجوخ دخل فيه الرجل (بحرامه) وإن كان حذاء لامعاً وضع فى
الأقدام بغير جوارب . ومضت البلدة تجرى فى الطرقات فرحة مهللة :
« الكساوى فى البحر ، الكساوى فى البحر ... » ، إلى أن رأهم رجال
الحفظ واستكثروا عليهم النعمة وعدوها بالنسبة لهم « ممنوعات »
واستغربوا أمرها واستكشفوا سرها ...

— ٥٨ —

ورأيت أول الأمر أن أسألمهم جملة ، علني أظفر منهم باعتراف يسر
علني مهمتي . فألقيت عليهم نظرة شاملة :

— سرقتم الملابس ؟

فأجابني من بينهم صوت عميق رزين :

— أبدأ والله ما سرقنا ولا نعرف السرقة ؛ البحر رمى علينا الكيس وكل

واحد منا طال نصيبه .

فقلت للرجل من فوري :

— نصيبه ؟ هو الكيس ملك البحر والأله أصحاب خواجات !

فأجاب الرجل في صوته العميق الهادئ :

— راح من بالننا أن له أصحاب يا حضرة البك ربنا يعلي مراتيك إرأف

بجال الفلاحين المساكين !

— المسألة مسألة قانون . والقانون صريح : إن كل من وجد شيئاً مملوكاً

للغير وحفظه بنية امتلاكه يعامله معاملة السارق . فهمتم ؟

— فهمنا يا حضرة البك ، لكن ... بقى ... الكساوى كانت قدام

نظرنا ورمها البحر علينا والواحد منا من غير مؤاخذه عريان ..

— أنت يا رجل فاكّر الدنيا فوضى ، والأ فيه قانون وحكومة !

ويظهر أن الرجل لم يستطع صبراً فقال :

— بقى هي الحكومة لا منها ولا كفاية شرها ! لا كستنا ولا تركتنا

ننكسي !

— أنا مضطر إلى أن أحبسكم .

— يا جناب البك . أنتم فتشتم دورنا وسحبتم الكساوى منا ؛ والعيال

— ٥٩ —

الفرحانة عادت تبكى ، ورجعنا لأصلنا لا لنا ولا علينا . يبقى الحبس
له لزوم !؟

— أفرج عنكم بضمنان مالى .

— مالى !؟ الفلاحين عرايا يا حضرة النائب !

— تفضلوا من غير مطرود ! دماغى وجعنى والمناقشة مع أمثالكم
ضياع وقت . القانون صريح وأنا مقيد بنصوص أشد من الحبال الموضوعة
في أيديكم . المسألة عندى قبل كل شىء مسألة قانون . « يجبس المتهمون
كلهم احتياطيا أربعة أيام ويجدد لهم ويعمل لهم فيش وتشبيهه » اسحبهم
يا عسكري !

فخرجوا جميعا في صف طويل وفي ذيلهم رجل يقول هامسا :

— يجبسونا لأن ربنا كسانا !

وهذا المكان . ولكن رائحة كريهة انتشرت في الحجر ، فناديت
الحاجب وأمرته بفتح النوافذ . ففعل وهو يلعن بصوت خافت هذا
الجاموس الأبيض الذى لا ينبغى إدخاله حجرات الحكومة . وحانت منى
التفاته إلى مساعدى فوجدته مطرقاً مفكراً . فداخلى حب استطلاع أن
أعرف ما بنفسه الآن . أتراه قد تأثر لشيء ! أترى دقة الحس ورقة الشعور
— التى جاء بها كما جئنا كلنا في مبدأ عملنا الحكومى بالريف — ما زالت
حية أم أنها في طريق الموت .. ولكن طرقة عصا شديدة ضربت الباب
عرفت فيها ضربة المأمور . ودخل صاحبنا يلهث ويصيح :

— البنت ريم ...

— ما لها !؟

قلتها رغما عنى في لطفة . فاستراح المأمور على كرسى وأنا أنتظر

— ٦٠ —

الكلام من فمه بصبر نافذ . غير أنه نظر إلى الحاجب بالياب :
— اسقني وحياة عينيك !
وأخرج منه يله الحرير الصناعي من كفه ومسح وجهه ورأسه وأنا على
أجر من الجمر . وأخيرا التفت إليّ وقال :
— اختفت !
فنظرت إليه مليًا :
— تتكلم جد !
— هربت مع الشيخ كلب !
— الشيخ عصفور !؟
— نهاره أسود !
— والعمل ؟
— أمرت فرقة الهجانة تقوم في الحال تفتنى الأثر في جميع الطرق
الزراعية ...
وجلسنا في صمت . وقد شرد فكر كل منا ...

١٥ أكتوبر ...

لم يمكث المأمور عندي طويلا ، فقد ذهب سريعا وانقطعت عني أخباره ؛ وطلبته كثيرا بالتليفون في المركز فلم يدر أحد أين مقره . كل ما عرفوه عنه أنه خرج في « البوكس فورد » مع المعاون ولم يعد ، وانتظرته طول نهاري لأعرف منه ..؟؟ ولكن النهار انقضى وغربت الشمس وعيّل صبري ، فمشيت بنفسى إلى المركز فلم أفر بطائل ، وقال لى قائل : لعله عرج على النادي فهذا ميعاد جلوسه فيه . فما ترددت ، وتوجهت إلى النادي فاستقبلنى أعضاءه دهشين أول الأمر ، ثم هرعوا يقدمون إلى الكرسى « السليم » الوحيد في تلك الحجره زيادة في الاحتفال لى . فسألت عن المأمور ؛ فقالوا : إنهم لم يروه وأنهم يعجبون لغيابه عن النادي حتى هذه الساعة . فلما علموا منى أنه خرج من الصباح مع المعاون في « البوكس » ولم يعد ، صاحوا جميعا من فم واحد :

— لا حول ولا قوة إلا بالله !

وصاح صوت من بينهم :

— ضعنا وضاعت فلوسنا والعوض على الله !

ولم أفطن إلى مرادهم في مبدأ أمرى ، ولكن التفاتة حانت منى إلى المائدة والورق المطروح عليها في انتظار اللاعبين . ففهمت للفور وتذكرت ما قيل لى من أن المأمور لم يعرف الخسارة قط في هذا النادي ، وأنه اعتاد في أوائل كل شهر أن يربح كل مرتبات الموظفين ثم يظل طول الشهر يقرضهم ما يحتاجون إليه للأكل والمعاش حتى لا يموتوا جوعا إلى أن يقبضوا ، فيلاعهم من جديد ويأخذ مرتباتهم الجديدة وقرضهم ما يعيشون به طول الشهر ، وهكذا دواليك . وقد اعتادوا هذه الحياة ورضوا بها ، وهم يعززون

أنفسهم بقولهم : سواء أكانت النقود في جيبنا أم في جيب حضرة المأمور فالنتيجة واحدة ... » شيء واحد يقلقهم ويخيفهم أشد الخوف ، هو خروج المأمور بأموال البلدة « للملاعبة » مركز آخر . فالمأمور يضجر أحيانا من ملاعبة هؤلاء المفلسين وقد تجردوا ، فينتخب تارة نفرا من خيرة اللاعبين وينتقلون لمنازلة المركز المجاور كما تنتقل فرق كرة القدم ... وتارة يخف المأمور بمفرده أو مع معاون إلى أقرب بلدة يلعب « دورين » ويرجع ، وتارة يستقبلون في ناديهم « منتخبا » قادم من بلاد أخرى . هنا في مثل هذه المقارعات الحامية الوطيس بين بلدة وبلدة يتعرض للخطر جيب المأمور ، أعنى مرتبات المركز ...

على أنى لم ألبث أن أدخلت الاطمئنان على قلوبهم بقولى لهم : إن المأمور قد ذهب في غالب الظن لعمل يتعلق بقضية تشغل بالنا . فهدأوا وجلسوا لحظة ساكنين أدبا واحتشاما ، ثم أخذوا يتحدثون ويثرثرون قليلا أثناء شرب القهوة ، إلى أن قال أحدهم في نبرة الترحيب :

— ربنا عوضنا خير بتشريف البك النايب ، لأن حضرة القاضي انقطع عن النادى من زمن ... بسبب سوء التفاهم ! ...

فنظرت إلى المتكلم وقد بدا في عيني المتسائلة ما دعاه إلى الاسترسال .
أى نعم ، سوء التفاهم بينه وبين البك المأمور . وأمعن في الثرثرة فقال :

— المسألة أصلها خلاف السيدات مع بعض . الست حرم القاضي واقعة مع الست حرم المأمور .

فأطرقت صامتا ، وظن الحاضرون أن بي رغبة إلى الإصغاء فانطلق أحدهم يقول :

— آخر أخبار أنهم طلّعوا البعض فوق الأسطح ونزلوا في بعض « ربح »
من النوع « النضيف » امرأة المأمور إغاظة في صاحبها راحت لبست سترة
زوجها الرسمية « بالتاج والضبورة » وغطت رأسها من غير مؤاخذه
بالطرحه أم « ترتر » وقالت لها بالصوت العالي : « أنتم حوالكم إلا قلة
القيمة لا يمشی وراكم إلا حاجب « ربابكيا » نُص عُمر مكسّر صابغ شعره .
لكن المركز كله بالخفر والعسكر تحت أمرنا ، يضرب لنا سلام » . قامت
امرأة القاضي نزلت ولبست لها الوسام الأحمر عهدة الحكومة فوق الفستان
البمبى المسخسخ وطلعت تقول لها : « قطع لسانك وليّة سفية ! أنتم
صحيح ما لكم إمارة إلا على غفيرين مغفلين ، لكن من في البلد كلها يقدر
يجبس ويشنق ويقول : حكمت المحكمة غيرنا ؟ » .

لقد أحسست شيئاً من الحرج في استماعي إلى هذا الكلام ، فما إن
فرغت من شرب القهوة حتى وضعت الفنجان على المائدة في هدوء
ونفضت في الحال مسلماً مودّعاً وانصرفت .

سرت في الطريق إلى منزلي أفكر . ولقد تمهلتي في خطاي ، إذ لم أجد في
نفسى رغبة إلى الاحتباس بين جدران أربعة مع أكداس من الشكاوى
المتأخرة أضع أنفى في تراب ملفاتها . وإن رأسى بعدُ لمشغول بغياب
المأمور ؛ أتراه قد وجدها ؟ .. أين ذهب بها إذن ؟ والشيخ عصفور ماذا
جرى له ؟ العجيب في الأمر أن يستطيع هذا العصفور أن يختطف هذه
الزنبقة ونحن عنه غافلون ! الحقيقة أننا لم نفطن إليه ، لقد استطاع أن
يختطفها من يد المأمور في خفة ومهارة . نعم ، من يد حضرة المأمور لا من
يدى أنا . ولكن الأعجب من هذا أن تطيعه الفتاة وتذهب معه راضية .
فهو من غير شك لم يُكرهها ولم يحملها قوة واقتداراً ، ما سر هذا التأثير

وهذا النفوذ العجيب وهو لا يكاد يعرفها ولم يكن بينهما لقاء طويل ؟ أترأه قد أغراها بالهرب ؟ ولكن ما الذى يدعوها إلى الهرب ؟ أهى مجرمة ؟ أهذا الجمال الرائع يجرم ! أم نحن المجرمون إذ نظن السوء بالجمال ؟ إن من العسير على نفسى أن أتصور الجمال غير مقترن بالفضيلة . الجمال الحق والفضيلة الحقة شيء واحد . ولكن المصائب قمر الدولة عندما سئل عن الضارب فاة بكلمة واحدة ما زال جرسها الباهت يرن فى أذنى : « ريم » ! ولكن ما بال الفتاة صرخت وذهلت إذ علمت بالجناية أول مرة ؟ أهو تصنع وتمثيل ؟ لقد خلعت آهتها قلبى خلعا فى تلك الليلة . وما أشك فى أن المأمور ، وهو على الأقل ذو خبرة بالقرويات ، قد تأثر مثلما تأثرت . فإن كان مكر مثل هذه البنية الرقيقة يجوز على أمثالنا فأحرى بنا أن نوضع فى مرابط البقر لا أن نوضع أمامنا نفوس الناس نستطلع مجاهلها ونستكشف أسرارها . وأهتنى هذه الخواطر وحملتنى قدماى من دون قصد إلى المستشفى ومررت ببابه الكبير ووقعت عينى اللاهية على ذلك المنظر المعتاد من الأهالى والنساء والصبيان الجالسين القرفصاء فلم أحفل بهم . ولكنى لم أكد أغادر هذا الجمع حتى وقفت دهشا . فلقد لحت تحت الجدار على بعد قصبة من الناس الشيخ عصفور جالسا إلى الأرض وهو مطرق ينكت التراب بطرف عوده وبجواره الفتاة وقد أسندت رأسها إلى الحائط تعبا وإعياء أو كآبة وحزنا . فهمت كل شيء . إنها جاءت المستشفى تسأل عن حال المريض . وإنما اتخذت من الشيخ الأخضر دليلا وصاحبنا ومعينا ، وكان ينبغى لذكائنا أن يتجه فى بحثه إلى هذه الجهة القريبة . ولكن ما العمل الآن ؟ إنى بمفردى ؛ ولا سلطة لى بغير رجال الحفظ ألقى إليهم الأوامر . لا بد إذن من الذهاب من فورى إلى دار المركز

لأبعث أحد العساكر يأتي بهما . وأسرعت في السير قبل أن يعلمنا برؤيتي
لهما فيهربا خوفا مني وابتعدت عن المكان وأنا أقول في نفسي : لا شك أن
الشيخ عصفور يعلم الآن كل أسرار القضية . أو أنه على الأقل قد اطلع على
سر الفتاة وغاص بعينه البراقطين في بحار نفسها العميقة المظلمة . ولكن هل
يفضى هذا الشيخ إلينا بشيء ؟ إنه هو نفسه سر مغلق ، ولست أدري أهو
حقا أبله أم خلف هذا الوجه الساذج ... ؟؟ وكنت قد بلغت المركز .
ورأيت ببابه « البوكس فورد » فعلمت أن المأمور قد عاد ، فأسرعت
واقترحت عليه حجرته فألفيته ملقى على « الكنبه » وقد خلع طربوشه
وأمسك القلة الفخار يجرع منها والعرق يتصبب من جبينه فلم يكذب يراني
حتى صباح :

— المسألة وحياتك فيها شغل سحر ! لا بد أن الشيخ الكلب سحر
البنث . تصور أننا من الصبح لغاية ساعة تاريخه ما تركنا في دائرة المركز
غيط ذرة ولا زراعة قصب ولا ساقية ولا طاحونة ولا كُفر ولا دوّار ولا
ترعة ولا أرض ولا سما ولا طريق زراعي ولا جهنم حمرا إلا قلبناها
وفتشناها شبر شبر . لو كانوا انقلبوا طير على الشجر أو سمك في البحر كنا
وجدناهم . لكن المصيبة أنهم ...

فما تمالكت أن قاطعته :

— المصيبة أنهم على بُعد خطوة من هنا يا حضرة المأمور !!

فوضع المأمور « القلة » على الأرض ونظر إلى فاغرا فاه :

— إيه ؟

فقلت في شيء من الحدة :

(يوميات نائب في الأرياف)

— ٦٦ —

— طير إيه وسمك إيه !! الرجل والبنت قدام باب المستشفى من ساعتها .

— المستشفى الأميري ١؟

— قم يا شيخ قل لواحد عسكري يروح يناديهم من هناك ، بلاش أمور ...

ولم أتم بقية عبارتي ، فقد نهض المأمور فرحا قبل أن يسمع مني ، وصاح بصوت جلجل في صحن المركز :

— يا شاويش عبد النبي !

فجاء من ناحية الاسطبلات رجل عملاق في قميص وسراويل بيضاء ورفع يده بالسلام وقال :

— أفندم سعادة البك ؟

— قم حالا مع نفرين للمستشفى الأميري ومعكم قيد حديد .

فتردد الرجل وقال مقاطعا :

— « أودة التبن » مفتوحة يا سعادة البك والأنفار جارين العليق

والفرش للخيل ...

فصاح فيه المأمور :

— يا حصان نفذ الأوامر إن شا الله عن الخيل ما باتوا في ليلتهم .

قلت لك قم في الحال .

— حاضر يا أفندم !

وتركت المأمور يفهم مرؤوسه ما يتبع . وانصرفت إلى مكتبي بعد أن أوصيت المأمور أن يلحق بي مع المقيوض عليهما . فأنا لا أحب مطلقا التحقيق في دار المركز وهي ليست داري . فربُّ المركز هو المأمور .

ولا أرضى لنفسى أن أكون فى كنفه أثناء عملى . خصوصا فى هذه القضية وأمام هذه البنية . وذهبت على عَجَل وأرسلت من يستدعى كاتب التحقيق . ولم يمض قليل حتى كنت فى حجرتى جالسا إلى مكتبى أطيل النظر إلى الباب نافد الصبر منتظرا قدوم الفتاة . كأنه موعد لقاء .

وسمعت نقرا على باب الحجرة . ودخل المأمور يسألنى للفور عن المطلوبين فأجبت أنى لم أر أحدا بعد . فجلس وهو يقول إنه أرسل من يأتى بهما . وجعل ينظر هو أيضا إلى الباب ويفتل شاريه . وجاء كاتبى بأوراقه ونشرها أمامى . واستعد كل منا . وإذا بجلبة ترتفع فى الردهة وصوت أقدام ثقيلة وصلصلة حديد ، وطرق الباب علينا ، ثم فتح وألقى بيننا الشيخ عصفور وحده مكبل اليدين وخلفه الباشجويش يحمل له عوده الطويل فوقع فى نفسى قلق . وشعرت بوقع مثله فى نفس المأمور . فقد ابتدر .
الباشجاويش صائحا :

— والبنت ١٩

— وجدنا الرجل وحده فقبضنا عليه يا فندم .

— وحده ١١٩

قالها المأمور كما قتلها أنا فى نفس الوقت ، وقد اختلط فى نفسينا الأسف بالعجب والغضب . وخرج المأمور عن طوره فهض وصرخ فى وجـ
الشيخ عصفور قائلا :

— البنت ١٩

فلم يبد الرجل حراكا . وأجاب فى هدوء رصين :

— بنت مين !

فنظر إليه المأمور نظرة شزراء وقال :

— ٦٨ —

— إنت يا رجل شارب حشيش ؟! شغل الحشيش أنا أفهمه ، طيب !!
وأراد أن يلكمه بقبضته القوية فمنعته من ذلك ، وأمرت الشيخ أن
يدنو منى فدنا فسألته في رفق :

— ريم كانت معك !

فأجابنى الرجل من غير تردد :

— أبدا .

فأدركت أن عين الرجل البراقة قد لمحتنى عند مرورى بباب المستشفى ،
وفهم بدكائه ما سيكون فأخفى الفتاة فى الحال ، أو أن الأمر غير ذلك وأن
عينى هى التى خانتنى فلم تكن ريم إلى جانبه ، وأن خيالى السابح فى جو
هذه الفتاة قد ألقى صورتها وأثوابها على امرأة أخرى من الفلاحات
المنتظرات بالباب كل هذا جائز ، ولكن أين ذهبت ريم ؟ ولماذا أتهم بصرى
ولا أتهم هذا الشيخ المخاتل ؟ ومن هو أولا هذا الرجل ؟ وصيحت فيه من
فورى قائلا :

— تعال يا رجل أنت !

— محسوبك .

— من أنت ؟

فنظر إلى الرجل نظرة من لم يفهم السؤال . فألقيت عليه العبارة من
جديد فى شدة وقوة ، فقال :

— أنا ... أنا عصفور ، ألقط الحب فوق التراب ، وأعبد الرب تحت

التراب !

— تكلم جد يا رجل . اسمك ؟

— عصفور .

— ٦٩ —

وأشار إلى يديه ، وفيهما القيود وصاح :
— أطلقوني ! من حب النبي يطلقني ..
فأمرت العسكر بفك القيد من يديه ؛ وسألته في صرامة :
— صنعتك ؟

فتردد الشيخ قليلا وسكت لحظة ، ثم لفظ آهة من أعماق قلبه ورجع
برأسه إلى الوراء وجمدت عيناه كأنهما تنظران إلى شيء لا وجود له في عالم
الحس والحقيقة ورفع عقيرته بالغناء :

« أنا كنت صياد
وصيد السمك غيَّه
نزلت بحر السمك
أصطاد لي بنِّيَّه
وعجبنى شكل السمك
في البحر حوالِيَّه
واحدة بياض شفتشي
والتانية بلطيَّه ... »

فقاطعه المأمور صائحا :

— مفهوم ، مفهوم ! والى غرقت في الرياح من ستين كانت البياض
والأُّ البلطية !؟

فلم يجبه الشيخ ولم يلتفت إليه ومضى يغنى :
« واحدة بياض شفتشي
والتانية بلطيَّه

— ٧٠ —

والتالته من بدعها

سحرت مراكيبه

وتهد في العبارة الأخيرة واتخذ صوته فيها نبرة عجيبة ذات معنى
ارتجفت له قليلا ، ونظرت من طرف خفى إلى المأمور فرأيته قد اختلجت
عيناه ، ولكنه تجلد وتحامل وقال للرجل :

— ومن هم المراكبية!؟

فأطرق الرجل وصمت صمتا عميقا . ولست أدري أهو أيضا خيال
منى ما اعترانى من شعور بأن هذا الشيخ قد فهم ... وأنه قد أدرك
ما بنا منذ اللحظة الأولى ...

١٦ أكتوبر ...

لم نستطع أن نعرف شيئاً من الشيخ عصفور ، ولم نستطع كذلك أن نقبض عليه ، فهو لم يرتكب أمراً يقع تحت نصوص القانون فأطلقناه ، وخطر ببالنا أن ندفع في أثره أحد المخبرين عسى أن نستكشف مخبأ الفتاة ... ولكن أين هو المخبر السرى الذى يخفى على الشيخ عصفور ؟ إنه يعرف كل رجال الحفظ معرفة أكيدة ، وهو الذى قام معهم في الوقائع مئات المرات ، وسهر معهم وأكل وشرب وغنى وأنشد ، ودلهم على مخبئ الأسلحة . واقتفى معهم آثار المجرمين . إنه يكاد يحسب من أسرة « البوليس » . تركناه ينصرف في سلام . وقد اكتفى المأمور الحانق بأن شيعة إلى الباب بصفحة على قفاه شفى بها غليله ، وانصرف بعد ذلك كلُّ منا إلى شأنه : المأمور إلى ناديه ، وأنا إلى منزلى حيث خلعت ملابسى وخلوت إلى نفسى ، وأخرجت كراسة يومياتى ألقى فيها هذا الكلام الذى لا أجد من أفضى به إليه في هذا الريف . إن القلم لنعمة لأمثالنا ممن كتبت عليهم الوحدة ، ولكن القلم كالجواد ينطلق أحيانا من تلقاء نفسه كالطائر المرح ، وأحيانا يحرن ويشب على قدميه ويأبى أن يتقدم كأن في طريقه أفعى رافعة الرأس ، وهو الساعة يهتز في يدي ويرقص ولا يطيعنى كأن شيئاً يخيفه أو يقصيه عن مروج الأحلام ، فنظرت إلى خزانة ملابسى الخشبية فإذا فأر أسود على رأسها واقفا يقرض الخشب بأسنانه ، فجعلت أنظر إليه علّه يذهب ، فلم يذهب ، ومضت ساعة وهو مكانه وأنا في مكاني ، كلانا له عمل من غير شك ، وهو فيما يبدو لى لا يحفل بوجودى ، ولكنى أنا أحفل بوجوده . فزيارته في هذه الساعة شغلتنى عن نفسى ، وأخذت ألاحظه وهو يمسح رأسه وفمه بيديه الصغيرتين . وجلت أفكر في هذا المخلوق الذى لا

يفكر في ، وهنا كل الفرق بيني وبينه وتركت هذا النجار الصغير ذا المنشار الدقيق ، وحملت كتابي إلى سريري وسدلت « الناموسية » عليّ وأحكمت ربط أطرافها حتى آمن فضول هذا الزائر إذا حدثته نفسه بمداعبة قدمي العارية . ولم أجد فائدة من « المصايد » فإنها تكلفني عناء إعدادها وترقب نتيجتها . وليس أشق على النفس ولا أدعى إلى إضاعة الوقت من انتظار النتيجة ، إذا كانت الفريسة حاضرة تحاورنا وتداورنا ولا تقع حتى تقع معها نفوسنا. وفوق ذلك فلنكم قنصنا من الفيران ، ومع ذلك لم تنقطع زيارتها ، فلنتركها إذن تجيء وتروح ، ولنحملها هذا الجميل ؛ ولنحرص نحن على أنفسنا وحوائجنا . وأنا — والله الحمد — ليس لي حوائج يخشى عليها ، غير هذا الأثاث الرخيص من الخشب الأبيض قد حطمته كثرة التنقلات من بلد إلى بلد . فماذا يضيره أن تعبت به أسنان صغيرة ؟ ونمت في تلك الليلة بعد العشاء بقليل فإن في اليوم التالي جلسة القاضي السريع ، وقد كلفت مساعدي بحضورها علي أن أحضرها معه إلى جواره كي أمرنه على نظام الجلسات ، وما يتبع فيها من إجراءات . وجاء الصباح وذهبت إلى المحكمة فوجدت مساعدي في غرفة المداولة متأبطا مظروفا به وسامه وهو في انتظار القاضي . ولم يلبث القاضي أن جاء في القطار القادم من القاهرة وخلفه شعبان الحاجب . وهما يشندان في الخطي والقاضي يخرج من جيبه نقودا يناولها للحاجب ويقول له :

— اللحم يكون فلاحى من قشرة بيت اللوح ! واصح للبيض يا شعبان أفندى ؛ والزبدة والجبنة على عهدتك . أوضع الحاجة في السلال « كويس » وانتظرنى بها على المحطة في قطر ١١ كالمعتاد ، اطلع أنت السوق والأفندى المحضر يقوم بذلك بالعمل !

— ٧٣ —

وانصرف الحاجب سريعا ، ودخل علينا القاضى وسلم فى عَجَلَة قائلا :
— أظن ندخل الجلسة .

وصفق بيديه :

— يا افندى يا محضر ! حضر الجلسة ... الجلسة .

وألقى بمعطفه التيل الأبيض السفرى على كرسى . وأخرج وسامه
الأحمر من محفظته ولبسه فى الحال . وأقبل الفراش بالقهوة فشر بها القاضى
وهو واقف فى جرعتين وهجم على قاعة الجلسة ، ونحن فى أعقابهِ ، وصاح
المحضر :

— محكمة !!

ونظر القاضى فى « الرول » وقال :

— قضايا المخالفات . محمد عبد الرحيم الدنف ، لم ينقُ دودة القطن ..
غيايى خمسين قرش . تهاى السيد عنيبة ... لم يقدم ابنه للتطعيم .. غيايى
خمسين ... محمود محمد قنديل ، أحرز بندقية بدون رخصة .. غيايى
خمسين والمصادرة . غيايى خمسين .. غيايى خمسين ..

وانطلق القاضى فى الأحكام كالسهم لا يوقفه شيء ، والمحضر ينادى
مرة واحدة حتى يلاحق القاضى ؛ فمن لم يسمع النداء عُذُّ غائبا وحُكم
عليه غياييا . ومن سمع بالمصادفة فحضر يجرى ابتدره القاضى :

— أنت يا رجل تركت غنمك ترعى فى زراعة جارك ؟ .

— أصل الحكاية يا سعادة البك ...

— ما عندناش وقت لسماع حكايات .. حضورى خمسين . غيره .

عبد الرحمن إبراهيم أبو أحمد ... إنلخ إنلخ ..

— ٧٤ —

وانتهت المخالفات في مثل لمح البصر ، وجاء دور قضايا الجنح وفيها
سماع شهود ومرافعة محامين وهي تحتاج إلى شيء من الأناة . فأخرج
القاضي ساعته ووضعها أمامه ، وصاح في المحضر :
— بسرعة القضية الأولى ...

فنادى المحضر :

— سالم عبد المجيد شقرف ...

فنظر القاضي في الرول وعرف التهمة والتفت إلى المتهم وهو لم يجتز بعد
عتبة باب الجلسة وصاح فيه :

— ضربت الحرمة ؟ كلمة واحدة ... قل من عندك !

— يا سعادة البك فيه راجل يضرب حُرْمَةَ !!

— ممنوع الفلسفة . كلمة ورد غطاها . ضربت ؟ نعم أو لا ؟
— لأ .

فصاح القاضي في المحضر :

— نادِ الشاكية .

فحضرت الحرمة المضروبة تتعثر في « مَلْسِهَا » الأسود الطويل ، فلم
ينتظر القاضي حتى تدخل الجلسة ، وصرخ فيها :

— ضربك ؟

— أصل يا سيدي القاضي ربنا يخليك ...

— مفيش أصل . ضرب والأ لأ ؟ هي كلمة لا غير .

— ضرب .

— كفاية . واستغنت المحكمة عن بقية الشهود .. كلامك يا متهم .

فتنحج المتهم وجعل يدافع عن نفسه والقاضي مشغول عن سماعه
بكتابة الحثيات ومنطوق الحكم على الرول بالرصاص إلى أن فرغ فرفع
رأسه ونطق بالحكم دون أن ينظر إلى المتهم أو ينتظر بقية دفاعه .
— شهر مع الشغل .

— يا سعادة القاضي أنا عندي شهادة . لا ضربت ولا بطحت . الحكم
ظلم . ظلم يا ناس .

— اخرس ! اسحبه يا عسكري !

فسحبه العسكري بعيدا . ونوديت القضية التالية . فحضر رجل هريم
مقوس الظهر أبيض اللحية يدب على عصا فابتدره القاضي :

— بددت القمح المنجوز عليه ؟

— القمح قمحي . يا سعادة القاضي وأكلته أنا والعيال .

— معترف . حضوري ، حبس شهر مع الشغل .

— شهر ! يا مسلمين ! القمح قمحي . زراعتي ... مالي ...

فسحبه العسكري . وهو ينظر بعينين زائغتين إلى الحاضرين كأنما هو
لا يصدّق أن الحكم الذي سمع حقيقي . إن أذنه لا شك قد خائنته ، وإن
اليقين عند الناس الحاضرين . فهو لم يسرق قمح أحد ، لقد جاءه المحضر
حقيقة فحجز قمحه وعينه حارسا عليه حتى يسدد مال الحكومة ، ولكن
الجوع اشتد به وبعياله فأكل قمحه فمن ذا الذي يعدّه سارقا وبعاقبه عقاب
السارق ؟ إن هذا الشيخ لا يمكن أن يفهم هذا القانون الذي يسميه لصاً
لأنه أكل زراعته ، وثمره غرسه . إن هذه الجرائم التي اخترعها القانون
اختراعاً ليحمي بها مال الحكومة أو مال الدائنين ليست في نظر الفلاح
جرائم طبيعية يحسها بغريزته الساذجة . إنه يعرف أن الضرب جريمة والقتل

جريمة والسرقه جريمة . لأن في ذلك اعتداء ظاهرا على الغير ، وأن الرذيلة الخلقية فيها بديهية جلية ، ولكن التبديد ... كيف يفهم أركانه وحدوده ؟ إنما هو جريمة قانونية يظل يتحمل وزرها دون أن يؤمن بوجودها ، وأسلم الشيخ أمره لخالقه . وتسلمه الحراس وهو يقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله » . ونوديت القضية التالية ، ولم يكذ المحضر يلفظ اسم المتهم حتى كان القاضي قد وزن « الدوسيه » في يده فوجده ثقيلًا والشهود كثيرين ؛ ونظر إلى ساعته ثم نظر إلى منصة المحامين فلم يجد مع هذا المتهم محاميا فعلمت أنه يريد أن يؤجل القضية ولم يخب ظني ، فقد التفت إلى النيابة قائلاً :

— النيابة طالبة التأجيل ؟

فنظر مساعدي إلي مرتبكاً ، فأسرعت قائلاً :

— بالعكس ؛ النيابة تعارض في التأجيل .

فأخفى القاضي امتعاضه وقال في شبه همس :

— ننظرها والسلام . هات الشهود ...

غير أن القاضي ذكر أن هذه القضية إنما هي قضية « معارضة » في حكم غيابي سبق فيها . وينبغي أن تقدم المعارضة في خلال ثلاثة أيام . فقرأ في الحال التواريخ وصاح من فوره في المتهم متنفسا الصعداء :

— القضية مرفوضة شكلاً يا حضرة المتهم لأن المعارضة تقدمت بعد الميعاد .

فلم يفهم الفلاح ذو « العري » هذا الكلام . وقال :

— والعمل إيه يا حضرة القاضي ؟

— العمل أن الحكم السابق بحبسك ينفذ عليك . احجزه يا عسكري .

— الحبس بالزور يا حضرة القاضي؟ أنا مظلوم . لا قاضى سمع كلامى
ولا حاكم طلب سؤالى لحد الساعة !

— احرص ! معارضتك يا رجل بعد الميعاد !؟
— وماله ؟

— القانون يا رجل انت محدد ثلاثة أيام .

— أنا يا سيدى القاضى غلبان لا أعرف أقرأ ولا أكتب . ومن يفهمنى
القانون ويقرئنى المواعيد ؟

— يظهر أنى طوّلت بالى عليك أكثر من اللازم . أنت يا بهيم مفروض
فيك العلم بالقانون . احجزه يا عسكري !

ووضع الرجل بين المحجوزين وهو يلتفت يمينا ويسرة إلى من حوالبه
ليرى أهو وحده الذى لم يفهم !؟

وجعلت أتأمل لحظة سحنة هذا المخلوق الذى يفترضون فيه العلم
بقانون « نابليون » !! .

وانتهت الجلسة آخر الأمر . ووثب القاضى ناهضا وعاد إلى حجرة
المدولة ، وخلع وسامه على عَجَل ، فإن قطار العودة لم يبق على قيامه غير
سبع دقائق . ولكن القاضى تعود الركوب فى آخر لحظة ، فهو فى إسراعه لم
يفقد ثباته الداخلى ولا اطمئنانه ، وتناول معطفه الأبيض ووضع على
ذراعه وسلم علينا وانصرف إلى المحطة فى شبه ركض ، وإذا كاتب النيابة
يدخل مسرعا ببعض الملفات وخلفه عسكري يسحب مسجونا والكاتب
يصيح :

— القاضى مشى ؟ عندنا معارضة فى أمر حبس معروضة على حضرة

القاضى .

فقلت له في الحال :

— الحق القاضى على المحطة قبل ما يركب .

فصاح الكاتب فى العسكرى :

— هات المسجون يا شاويش واطلع على المحطة .

وهرول الجميع : الكاتب والجاويش والمسجون فى ذيل حارسه مربوطا فى السلسلة كأنه كلب . وجروا كلهم خلف القاضى الراكض . هذا منظر مألوف لأهل البلد فى يوم هذه الجلسة . فإن المعارضات المتأخرة والتجديد لأوامر الحبس تنظر وتمضى فى « بوفيه » المحطة قبل قيام القطار بدقيقتين ، ويتحرك القطار وقدم القاضى ما زالت على الرصيف والأخرى فى العربة الأنخيرة وهو يقول :

— رفض المعارضة واستمرار حبس المتهم .

فيدون الكاتب منطوق هذا الحكم فوق « رخامة » مائدة البوفيه بينما يتسلم القاضى من شعبان الراكض خلف القطار المتحرك « سلالى » البيض والزبد واللحم ، والحاجب يصيح بأعلى صوته :

— اللحم يا بك من بيت اللوح وبيت الكلاوى !

وصعدت بعد الجلسة إلى مكتبى أنا ومساعدى وقد بدا الوجوم على وجه المساعد ، فقد كان يحسب أن النيابة ستقوم فى كل قضية تشرح وجهة نظرها فى الاتهام . ولقد كان أعدهً لذلك مرافعات طويلة مكتوبة بخط واضح جميل على « أفرخ فولسكاب » مسطرة ، فإذا هو يخرج بها من الجلسة مطوية كما دخل بها ، وإذا الأحكام قد انطلقت انطلاق القطار فى بساطة وسرعة ، والعدالة قد جرت مجراها فى طرفة عين كأنها جواد السباق من دون حاجة إلى هذا التحليل والشرح والاستشهاد والاستدلال

الذى سهر ليلاليه ليحشو به هذه الأوراق .
وخلوت أخيرا فى مكتبى . ودخل على رئيس القلم الجنائى بـبريد
النيابة . وفتح مظاريفه أمامى كالمعتاد فى كل صباح ، وما كدنا نفض غلافا
أو غلافين حتى سمعنا ضجيجا خارج الحجرة وصوتا مدويا عرفت فيه
صوت الشيخ عصفور ، فبعثت من يسأله عن خبره ، فقيل لى : إن المركز
أرسله اليوم مقبوضا عليه بعد أن حرر له محضر تشرد . فأدركت أن المأمور
ما زال يعتقد أن هذا الشيخ هو الذى خطف البنت . وأن حقه عليه
ما زال متأججا وأنه لجأ إلى وسائل الإدارة ليوثق به . إن فكرة اتهام الشيخ
عصفور بالتشرد فكرة نيرة لا يمكن أن تخطر إلا بذهن المأمور المغيظ .
والحقيقة أن هذا الشيخ متشرد لا أكثر ولا أقل . وهو من هذه الناحية
يصلح فريسة لنصوص القانون التى بين أيدينا . ولكن العجيب أن يسكت
عنه المركز كل تلك الأعوام التى مضت ولا يفطن إلى أمر صناعته إلا
الساعة .. إن هذه الوسيلة لم تعجبني كثيرا ولم ترض ضميرى القضائى ؛
فإن نصوص القانون لا ينبغي أن تكون أسلحة فى أيدينا نضرب بها على من
نريد ضربه فى الوقت الذى نختاره . إن القبض على الشيخ عصفور اليوم هو
من غير شك مسألة انتقامية . إن المأمور وقد رأى هذا الرجل يفلت من
تهمة خطف الفتاة دبر وفكر فى طريق آخر لا يستطيع منه الإفلات .
هذا أسلوب الإدارة الذى لا يحسن أن يسلكه رجال القضاء ؛ وعزمت فى
نفسى أن أفرج عن الرجل ، ولكنى أرجأت النظر فى أمره حتى أفرغ من
« توريد البوستة » التى أمامى . فلقد قدم لى عبد المقصود أفندى مظروفا
أصفر ضخما علمت أن فيه « قضايا جنائيات » مرسله إلينا من الرئاسة
لدرسها والمرافعة فيها أمام محكمة الجنائيات المنعقدة فى هذا الشهر فى

عاصمة المديرية التي نعمل في دائرتها . فألقيت نظرة على هذه القضايا فوجدتها تحوى مئات الصفحات . وهل لى رأس يتسع الآن لكل هذا ؟ لا شىء ينفرنى من عمل النيابة غير المرافعة فى قضايا الجنايات . فإن من العسير على ذاكرتى الضعيفة أن تحيط بكل تلك التفاصيل التى تتكون منها الجريمة كى تبسطها بعد ذلك فى نظام وترتيب وهدوء أمام مستشارين ثلاثة عابسين ومحامين متربصين ، وجمهور يشاهد ويحكم لا على لب الموضوع ، بل على مدى إتقان الحركات والإشارات ، ورنين الصوت فى القاعة ، ومهارة الإلقاء ، والضرب باليد فوق المنصة . إنى بطبعى لا أصلح إلا للملاحظة الناس بخفية يتحركون فوق مسرح الحياة ، لا أن يشاهدنى الناس ممثلا بارعا قد سلطت على وجهه الأضواء ، إن هذه المواقف تعمى بصرى ، وتذهب لى ، وتطير ما فى ذاكرتى ، وتفقدنى ذلك الهدوء النفسى الذى أرى به أعماق الأشياء ، لذلك ما ترددت وأمرت بإحالة هذه القضايا على المساعد ، فهو ما زال فى تلك السن التى يهر فيها الإنسان ويعجب بهذه المواقف والمظاهر ؛ وقد يكون له من حسن الاستعداد لهذا العمل ما يجب على أن أوجهه إليه . وإنى فوق ذلك أتيح له فرصة الإقامة أياما فى عاصمة المديرية حيث يجد فى ملاحيتها ومشاربتها ما يرفه عنه . ويلطف من أثر الوحدة والضيق فى هذا الريف الصامت . وأعجبتنى هذه الحجج ورأيتها كافية لإقناعى بوجوب إزاحة هذه القضايا الثقيلة عن كاهلى . وناولنى رئيس القلم الجنائى بعد ذلك مظروفا آخر صغيرا قرأت عليه بالخبز الأحمر كلمة « سرى » فقلت فى نفسى : « تلك ملحوظة من النائب العام » . فأسرعت بفضه فإذا هو بلاغ من مجهول أرسل إلى النائب العمومى رأسا فى القاهرة فأحاله على إجراء اللازم فيه فنشرته فى يدى

وقرأته بإمعان ، ولم آت على آخره حتى كان قد استولى على العجب ،
وأطرقت لحظة أفكر ، ثم أعدت النظر فيه وتمهلتي في قراءة سطور هـ :
دام

« سعادة النائب العمومي بمصر

نعرفكم بأن الحرمة زوجة قمر الدولة علوان المضروب الموجود
« بالاسبتالية الميري » كانت ماتت من سنتين مخرقة وتستر عليها حلاق
الصحة من أجل الرشوة وأجرى دفنها بدون علم الحكومة واسألوا زوجها
علوان وأختها البنت ريم عن الذي خنقها . وأسباب الجريمة معلومة ولا
تخفى على فطنتكم إذا كلفتم خاطركم بالتحقيق بنفسكم وإنكم تكشفون
أسراراً خطيرة وتضربون على أيدي الأشرار . « وتوضعون » العدل في
مجره . والعدل أساس الملك . وقد قال الله عز وجل في كتابه العزيز :
﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ صدق الله العظيم .

« فاعل خير »

(يوميات نائب في الأرياف)

١٧ أكتوبر ...

فكرت ملياً في أمر ذلك الخطاب ، من ترى يكون مرسله المجهول ؟
الأسلوب ينم عن أن صاحبه أزهرى فسد . هذه الآية القرآنية وهذا
التوزيع لا يصدران إلا عن هذا الصنف الذى يستغل علمه القليل وجهل
الناس المطبق في الريف ، فيعيش على تحرير البلاغات المأجورة وبذر
الشقاق بين الأسر والأفراد . ولكن في هذا الخطاب على أى حال وقائع
تستدعى التحقيق . ولو صح ما جاء فيه من أن زوجة قمر الدولة قتلت
حنقا لخرجنا من الأمر بجناية تمخضت عن جناية ! لا يهمننا الآن البحث عن
صاحب الخطاب بقدر ما يهمننا التأكيد من صحة الاتهام . لا بد إذن من
فتح المقبرة واستخراج جثة زوجة المصاب وعرضها على الطبيب
الشرعى . وقد اتجه تفكيرى كله هذا الاتجاه فلم أشغل ذهنى بما ورد عن
ريم في هذا البلاغ وما يمكن أن يلحقها من شر . ذلك أن كل شيء مترتب
على نتيجة فحص الجثة . وكنت قد بادرت فأخطرت الطبيب الشرعى
ببرقية ، وقمت بما يلزم من إجراءات لفتح المقبرة ، فعينت عليها الحراس
يسهرون الليل بجوارها حتى لا يعيث بها عابث . وأرسلت في طلب
« اللحد » وكنت قد اتصلت تليفونياً بالمركز عقب قراءة ذلك الخطاب
لأخطر الأمور ، فقبل لى إن الأمور ركب ومضى إلى اجتماع خطير معقود
في المديرية برياسة المدير. وحضر إلى الفور معاون يقول :

— سعادتك اطلعت طبعا على جرائد المساء ؟

— أبدا .

— في البلد أزمة وزارية .

فأدركت في الحال سر اجتماع المديرية ، وعلمت أن رجال الإدارة منذ

الساعة لن يكون لهم عقل ولا فكر في غير تنسّم هوى الوزارة الجديدة ، حتى يعلّثوا أنفسهم للميل معها كما مالوا مع غيرها . وهذا الميل يبدو أكثر ما يبدو في التجهم السريع للعمد والأعيان الموالين للوزارة الآفلة ، والابتسام الوديع لأنصار الوزارة المقبلة . ولم أبدأ أية ملاحظة للمعاون فأنا رجل قضاء لا ينبغي لي الكلام في السياسة ؛ ومهما تغيرت الوزارات والأحزاب فإن القانون هو القانون . والتفت إليه أخيرا وقلت في هدوء :
— أظن حضرتك تقوم معنا بدل المأمور .

— الظروف الحاضرة تمنعني من ترك المركز . لكن ملاحظ النقطة موجود هنا في خدمة سعادتك .

فتركته ينصرف إلى مركزه ، وأمرت بإعداد السيارة ، وجلست أنتظر الطبيب الشرعى وقد أجاب على برقيتنا بإشارة تليفونية أنه حاضر اليوم . ودخل على عبد المقصود أفندى وأشار بيده إلى « النتيجة » المعلقة بالحائط ، وذكرنى بضرورة تفتيش سجن المركز ، فالنيابة عليها أن تقوم بهذا التفتيش فجأة مرتين في كل شهر على الأقل فلم ألتفت إليه وأمرته أن يذكرنى فيما بعد ؛ فمشى خطوتين ثم عاد وغمز بعينه :
— فيه إشاعة أن الوزارة الجديدة تألفت وناوية تجرى انتخابات جديدة .

— وما له ؟

— غرضى يعنى ... قبل سجن المركز ما يزدحم ...
فلم أنبس بكلمة وتشاغلته بتقليب أوراق القضية التى نقوم من أجلها ؛ ورأى رئيس القلم الجنائى أنى لن أجيب فانصرف مترددا متباطئا .

وأدركت من هيئته أنه لم يأت من تلقاء نفسه ؛ فناديته فرجع ، فقلت له في
ابتسامته التخايث :

— كاتب ضبط المركز كلمك في التليفون ؟
فأجاب للفور :

— طبعاً ودفاتر السجن مسددة جاهزة ... ومحضر التفتيش مكتوب .
وكل شيء تمام ، ولا باقى غير إمضاء سعادتك .. والحكاية كلها قيمة ربع
ساعة ونكون انتهينا من مأمورية تفتيش السجن .
فنظرت إليه شزرا :

— شيء جميل ! تفتيش فجائى مضبوط يا عبد المقصود أفندى ... ؟
فارتبك الرجل قليلا ثم قال :

— أنا غرضى راحة سعادتك من جهة ، وعدم إحراج المركز في
الظروف الحاضرة من جهة أخرى ...
— طيب . طيب ...

وأسرعت فأقفلت باب الموضوع . فقد سمعت نقرا على باب حجرتى ،
وأبصرت من خلفه الطبيب الشرعى بحقيبته الصغيرة يستأذن فى الدخول .
فنهضت فى الحال واتجهت إليه وأدخلته مرحباً . وطلبت له فنجانا-من
القهوة . ثم تجاذبنا الحديث فى الأحوال العامة . فأخبرنى باختصار ما سبق
أن علمته من عبد المقصود أفندى من أن الوزارة الجديدة قد تسلمت فعلا
مقاليد الأمر ، وأنها تعد العدة لانتخابات جديدة . ولم نعلق على هذه
الأخبار بشيء فكلانا يجهل ميول الآخر . كلانا يخشى أن يظهر رأيه
الدفين . وبدأنا لوقتنا الكلام فى العمل وفى القضية التى بين أيدينا ،
وأخبرت الطبيب بظروفها فى عبارات سريعة . واستقر الرأى على المبادرة

بالانتقال إلى المقبرة . فقمنا إلى السيارة وانطلقنا ولم نقف حتى بلغنا مكانا قصيا في المزارع قد تجمعت فيه تحت ظل نخلتين أو ثلاث بضع مقابر من الطين والآجر قد علتها « شواهد » طويلة سمراء كأنها رعوس العفاريت فنزلنا . وهرع لاستقبالنا الحراس . هبوا فجأة من مراقدهم لمرآنا وخرجوا علينا ، بعضهم يهبط من أعالي « مرتبة » قد وضعت فوق المقبرة كما يوضع الهودج فوق الناقة ؛ وبعضهم يثب من على حصير فرش بين يدي هذه المقبرة كأنهم قردة تثب من حجر أمها ، وسألت عن حضرة ملاحظ النقطة فأشاروا إلى الطريق الزراعي فرأيت فتى في ملابسه العسكرية يقبل متبخترا على حصانه الأشهب . ولم تمض لحظة حتى بدأنا العمل ، فأمرنا اللحد بفتح المقبرة فأعمل في الحال فأسه ومَعولَه في البناء الذي يخفى المدخل . وسألني الطبيب الشرعي عما إذا كنا استدعينا أحدا من أهل المتوفاة يستطيع أن يتعرف على الجثة وكفنها ؛ فأجبتُه إنا لا نعرف للمتوفاة غير أخت قد هربت واختفت . فاقترح إيفاد الملاحظ إلى القرية يحضر لنا امرأة من الجيران ممن حضروا غسلها أو دفنها . فقام الملاحظ للفور لما انتدب له . وأمعن اللحد في الدق والهدم حتى جرح صدر المقبرة جرحا بالغا وقام عنها وهو يقول :

— الباب من غير مؤاخذة من ورا ...

وتناول أدواته وذهب إلى الناحية الأخرى وجعل يوسعها ضربا وطرقا . فصاح به الطبيب الشرعي :

— هي دى يا رجل انت مقبرة توت عنخ آمون ؟ تغلط في المدخل وأنت لحد الناحية !

— أصل يا حضرة الدكتور مضى عليها زمن مقفلة .

وضرب ضربتين انفتح تحتها المدخل . وزحف الرجل على يديه
وقدميه إلى داخل المقبرة وخرج يجذب شيئا ملفوفا في « قماش » لالون له
من القِدم تكاد أطرافه تنفتت في أصابعه ؛ ووضعته تحت أنظارنا وهو
يقول :

— شوفوا هي دي « بلا قافية » الحُرمة ؟

فكشفت الطيب الشرعى عن تلك العظام النخرة ونظر فيها ثم قال
للحاد :

— ارجع بها يا حمار . دي جثة رجل .

— راجل ١؟

واختفى اللحاد بالجثة في قلب المقبرة وعاد فظهر بجثة أخرى ما كاد
يفحصها الطيب حتى وجدها هي كذلك جثة رجل . وهكذا ظل يعرض
علينا الجثث التى وقعت عليها يده فإذا كلها لرجال . فصاح اللحاد مغیظا :

— أمال النسوان راحت فين يا رجاله ؟

فقال له الطيب فى هدوء :

— حضرتك بالاختصار غلطت فى المقبرة .

ثم نظر إلى المقبرة التى بجوارها وقال :

— افتح دي .

فذهب اللحاد بأدواته حيث أشار إليه الطيب بينما أنزل الحراس

« متاعهم » من فوق المقبرة الأولى وهم يتهامسون !

— بقى كنا راكبين غلط !

وفتحت المقبرة الثانية . وما كاد اللحاد يزحف إليها ويختفى فيها حتى
ظهر الملاحظ عائدا وخلفه امرأة تخفى وجهها بطرف طرحتها السوداء

— ٨٧ —

وترفع عقيرتها مُولولة :

— ياللى كنتِ منورة الحارة !

فسد الملاحظ فمها فى الحال منتهراً .

— اخرسى يا وليّة !

واقترب الطبيب الشرعى من المرأة وحادثها فعلم منها أنها كانت جارة للمتوفاة وأنها حضرت جهازها .

— اسمعى يا ستى . الميثة كفنوها قدامك ؟

فتنهدت المرأة وقالت :

— قدامى يا سيدى ، وبقيت بعيد عنك ألطم وارقع بالصوت .

— المهم عندنا مش اللطم ، كفنوها فى كم « درج » ؟

— فى عين العبدو ثلاث « أدراج » : درج مرمر ودرج كزمير ودرج

حرير أخضر ...

وخرج اللحد وقعد يجذب من داخل المقبرة جثة فحصى الطبيب كنفها وقد ذهب لونه بفعل الزمن إلا بقية اخضرار خفيف فى أطرافه ينم عن حقيقة لونه الغابر ، فأمر من الفور بحمل الجثة ووضعها على « لوحين » من الخشب نُصبًا سريعاً على هيئة مشرحة تحت ظلال شجرة من السنط ، وطلب إبعاد الحاضرين فرفع الملاحظ عصاه الخيزران الرفيعة فى يده وفرّق الناس صائحا :

— بعيد . بعيد ...

وكشف الطبيب الكفن فى احتياط . وما كاد ذلك الهيكل العظمى المسجّى يظهر للعيان حتى سمعت خلفى همسا وهممة ، فاستدرت فأبصرت سائق السيارة مختفيا خلف جذع الشجرة شاحب الوجه

بارز العينين يشاهد هذا المنظر ولا يملك نفسه :

— لا حول ولا قوة إلا بالله ! إنا لله وإنا إليه راجعون !

ولمحه الطبيب فانتهره وأمره بالابتعاد . وصيحت أنا كذلك في السائق صيحة انصرف بعدها إلى سيارته وقبع فيها . غير أنى تأملت قليلا أمر هذا السائق ... ما الذى روعه ؟ أهو منظر العظام فى ذاتها ، أم فكرة الموت الممثلة فيها ، أم المصير الآدمى وقد رآه أمامه رأى العين ؟ ولماذا لم يعد منظر الجثث أو العظام يؤثر فى مثلى وفى مثل الطبيب ، وحتى فى مثل اللحد أو الحراس هذا التأثير ؟ يخيل إلى أن هذه الجثث والعظام قد فقدت لدينا ما فيها من رموز . فهى لا تعدو فى نظرنا قطع الأخشاب وعيدان الحطب وقواب الطين والآجر . إنها أشياء تتداولها أيدينا فى عملنا اليومى . لقد انفصل عنها ذلك « الرمز » الذى هو كل قوتها . نعم . وماذا يبقى من كل تلك الأشياء العظيمة المقدسة التى لها فى حياتنا البشرية كل الخطر لو نزعنا عنها ذلك « الرمز » ، أبقى منها أمام أبصارنا اللاهية غير المكترثة غير جسم مادي حجر أو عظم لا يساوى شيئا ولا يعنى شيئا . ما مصير البشرية وما قيمتها لو ذهب عنها « الرمز » ... « الرمز » هو فى ذاته كائن لا وجود له . هو لا شيء . وهو مع ذلك كل شيء فى حياتنا الآدمية . هذا « اللا شيء » الذى نشيد عليه حياتنا هو كل ما نملك من سمو نختال به ونمتاز على غيرنا من المخلوقات . هنا كل الفرق بين الحيوانات العليا والحيوانات الدنيا .

وقطع الطبيب سلسلة تفكيرى بمقص طبي فى يده ذات القفاز الجلدى

الشفاف يفحص به العظام قائلا :

— امرأة من غير شك .

ومضى فى عمله وهو يقول :

— الأضلاع سليمة ، والجمجمة : الطاسة سليمة ، والعظم اللامي ..
وهنا نظرت إليه في انتباه . فالعظم اللامي في العنق هو الدليل الناطق
على حدوث الجريمة . فإن كسره معناه أن الخنق قد وقع . وإن كل ما يهمنى
في الحقيقة من استخراج الجثة والكشف عنها هو فحص العظم اللامي
والتحقق من سلامته . ولم يمهلى الطبيب حتى أسأله وصاح وهو يرينى
هذا العظم بين أصابعه :

— مكسور .

هذه الكلمة كانت كافية لتحديد موقفى من الأمر . إن ما جاء في
البلاغ المجهول المصدر حقيقى إذن . وماذا أنتظر بعد ذلك وصيحت في
الطبيب :

— انتبهنا .

وعزمت على العودة مسرعا للبدء في تدبير ما ينبغي للوصول إلى معرفة
سر هذه القضية الجديدة ، فهى من دون ريب مفتاح الأولى . وفرغ
الطبيب الشرعى من أمر الجثة وأعادها للحاد أمانا إلى مقرها وسد عليها
كما كانت . وأنا صامت في مكاني أفكر فيمن يكون الخانق لهذه المرأة .
أهو زوجها المصاب ؟ وما الذى حمله على ذلك ؟ وأختها ريم ما شأنها في
الأمر ؟ أتراها تعلم بهذه الجريمة ؟ وأين ريم الآن ؟ إن وجودها اليوم في
التحقيق ذو أهمية كبرى . ولكن كيف نعثر عليها ؟ إن الشيخ عصفور يعلم
مقرها ، أو على الأقل يستطيع أن يعاوننا في البحث عنها . إذن فلنجعل
الشيخ عصفورا مبدأ لخط السير الجديد . فلأقنعه أنا إذن بوسائلى بعيدا عن
طرق الإدارة العنيفة . إن مثله قد يؤخذ بالحيلة والهدوء . ترى لو أفهمته
مثلا أن فى إمكاني أن أزوجه منه ... وأعجبتنى الفكرة وعزمت على

تنفيذها . وركبنا السيارة عائدين . ومررنا في طريقنا بالقرية ، فإذا أصوات حزن وولولة نساء ترتفع من « دوار » العُمدة فقلت وأنا أوقف السائق بإشارة :

— العمدة مات ؟

وأطلت من نافذة السيارة ، فإذا أنا أمام منظر لم أفهمه أول الأمر . ورأيت شيخ الخفر ووكيله وبعض الخفراء يحملون شيئاً في أيديهم ، ومن حولهم جموع الرجال والنساء والصبيان يهللون ويكبرون والنساء يزغردن كما يفعلن في الأفراح وفي أيديهن الدفوف يضربن عليها . وتأملت جيداً ما يحملونه وتأمل معي الطبيب الشرعي دهشاً فرأينا آلة تليفون حكومية من طراز تليفونات المراكز . فصاح الطبيب في عجب :

— التليفون له زفة كأنها زفة عروسة .

ومر بقربنا خفير نظامي فأشرت إليه فاقترب وسألته عن الخبر فأجابني أنه قد صدر اليوم أمر برفت العمدة الحالي وتعيين آخر مكانه من الأسرة المنافسة في القرية . ففهمنا كل شيء ، ومال على الطبيب يقول ضاحكاً :

— يظهر إن تليفون الحكومة عند العمدة في مقام الصولجان .

هذا صحيح فيما أرى . إنه مظهر السلطة والحكم وأداة الاتصال بالحكومة ، وإن خلعه من دار العمدة « المخلوع » إنما هو « رمز » زوال السلطة ، وأن هذا العويل المرتفع من « دوار » العمدة القديم ، وهذا البكاء الذي يشيع به التليفون الخارج من بيته لدليل على فداحة المصيبة ؛ وهذه المصيبة ككل مصيبة لها وجهها الآخر الباسم يطل على ناحية أخرى ؛ وإن دار العمدة الجديد الذي يستقبل التليفون الداخِل عليه بالزغاريد

— ٩١ —

والدفوف لدليل أيضا على مبلغ السعادة والهناء. هنا « الرمز » كذلك في شكل « تليفون » من الصلب والخشب قد لعب دورا مهما على مسرح هذه القرية الوادعة .

وانطلقت بنا السيارة والطبيب صامت في بعض الطريق . وأخيرا التفت إلي وقال :

— يظهر أن العمدة الجديد من محاسيب الوزارة الجديدة .
فقلت له :

— إن هذه القرية ، ككل قرية اليوم في مصر بها عائلتان قويتان أو أكثر تتنافس في العُمدية ، وكل منها ينتمى إلى حزب من الأحزاب التي تتنازع الحكم ، ولماذا تريد أن يكون الحال في القرية غيره في الدولة ؟ وهل القرية إلا مصغر الدولة ؟

١٨ أكتوبر ...

كان أول ما فعلت عقب رجوعي إلى مكتبي أن أرسلت في طلب
الشيخ عصفور ، فحضر أمامي مطرقا صامتا فابتدرته :

— البنت ريم تعجبك ؟

فرفع رأسه ونظر إلي نظرة أحسست أنها نفذت إلى أعماق نفسي ، ثم
عاد فأطرق ولم يجب .

فقلت له :

— أنا مستعد أطلب المأذون وأعقد عليك وعليها حالا .

فلم يبد حراكا ، فمضيت أقول :

— لو كانت موجودة هنا كنت حالا ...

وجعلت أستحثه على الكلام فلم يخرج عن صمته . وأخيرا ترنم

بصوت كالهمس لكنه واضح النبرات :

نهيتك ما انتهيت

والطبع فيك غالب

وديل الكلب ما ينعدل

ولو علقوا فيه قالب

فما تمالكت أن صحت :

— اخرس يا بهيم !

وأسرعت بطرده ، وقد تبين لي أن لا فائدة ترجى من مثله . ورأيت أن
أسأل حلاق الصحة ؛ فاستدعيته وسألته في أمر المرأة المخنوقة وكيف صرح

بدفنها بدون إذن النيابة ، فقال من فوره :

— ٩٣ —

— وشرفك يا سيدنا البك ما أعرف إن كانت مخنوقة أو محروقة ،
حضرة حكيم الصحة أمر بالدفن كالمعتاد .

— بدون توقيع كشف ؟

— لو كنا نقعد نكشف يا سعادة البك على كل متوفى كان زماننا توفينا
من بدرى .

— بقى بالاختصار لا حد كشف ولا نظر ...

— الجارى عليه العمل يا سعادة البك أن حلاقين الصحة فى الجهات
تبلغ الدكتور المفتش بالتليفون ، وحضرته قاعد على مكتبه هنا ما عليه إلا
أنه يسأل فى كل حالة عن سبب الوفاة نرد عليه فى التليفون : ماتت
يا دكتور موتة ربها ، يقوم يقول : ادفن ، ادفن ، ادفن ...
— ما شاء الله ، ما شاء الله ، ما شاء الله !

ولم أر فائدة كذلك من البحث مع هذا الحلاق فأنا أدري الناس بحلاق
الصحة . إن كل مهمتهم أن يقبضوا من أهل المتوفى خمسة قروش ويحصلوا
لهم على الإذن بالدفن دون أن ينظروا فى وجه جثة أو ينتقلوا إلى منزل
متوفى . إن هم إلا سمسرة « دفن » ، حتى مع فرض وجود النزىه منهم الذى
يريد القيام بواجبه فيذهب للكشف على الجثة ، ماذا يستطيع مثل هذا
الجاهل أن يستكشف ؟ إنه سيري رجلا أو امرأة قد فاضت روحها وليس
بها إصابات ظاهرة . فكيف يعرف أن الوفاة مشتبه فى أمرها ؟! إن
« نظام » حلاق الصحة نفسه ، هذا النظام الذى لا تعرفه أية دولة على
بسيط الأرض هو موطن الداء . ومثله عندنا نظام « الدايات » وإنى
ما زلت أذكر ما قصه على طيب مستشفى المركز ذات يوم . قال لى : إنه
دعى إلى حالة ولادة عسرة فى إحدى جهات الريف ؛ فذهب مسرعا

فوجد المريضة ملقاة على ظهرها وقد تدلت منها ذراع الجنين وبجوارها عجوز حمراء الشعر والشدقين ، قيل له إنها « ست هندية الداية » وأخبروه أن المريضة قد مضى عليها ثلاثة أيام على هذه الحال بهذه الذراع الخارجة منها . فسأل الداية : لماذا انتظرت كل هذا الوقت ولم تخطري الطبيب ؟ فأجابت : « كنا منتظرين ستر ربنا ، قلنا المولى ينتعها بالسلامة » . ووضع الطبيب يده في الرحم فإذا الرحم محشو بالتبن ، وإذا مثناة المريضة قد تهتكك وأنها هالكة لا أمل فيها ، وأن المولود قد مات منذ يومين . وألقى نظرة حوله فإذا كومة من « التبن » القدر عند أقدام المرأة . فالتفت إلى « ست هندية الداية الصحية » مستفهما ، فقالت : أصل يا سيدي الدكتور لما دخلت يدي أسحب الولد لقيتها راحت « مزفلطة » ، قمت قلت « أحرش كفى بشوية تبن » . ومدت للطبيب يدا ملوثة « بالتبن » قد بدت منها أظافر طويلة سوداء . وقال لي الطبيب : « إن الداية تولد المرأة كما لو كانت جاموسة » . وماتت المريضة مع طفلها واكتفت الصحة بأن سحبت من هذه الداية « الصحية » التصريح . ولكنها لم تغير النظام وهي تعلم أن ألوف الأطفال يموتون على هذه الصورة كل عام ...

نظرت إلى حلاق الصحة ملياً وأدركت أن أرواح الناس في مصر لا قيمة لها . لأن الذين عليهم أن يفكروا في هذه الأرواح لا يفكرون فيها إلا قليلا . وطردت هذا الرجل أيضا ، وقلت في نفسي : إن خير السبل في مثل هذه القضية أن أعرف مرسل البلاغ المجهول ، وفكرت لحظة ، وخطر لي أن أعرض خطه على القاضي الشرعي وهو يتحرى لي بين موظفي محكمته وبين المحامين الشرعيين . ولعله هو نفسه قد مر به هذا الخط . وما دمت أعتقد أن صاحب الخطاب أزهرى فليكن البحث في دائرة المحكمة

الشرعية ؛ وطلبت في الحال عبد المقصود أفندي رئيس القلم الجنائي وهو من أصدقاء القاضى الشرعى وكلفته أن يرافقنى في الحال ، ولم يمض قليل حتى كنا في بناء تلك المحكمة ، فسألنا عن القاضى فدلونا على حجرة أمام بابها « قبقاب » ؛ فهمس عبد المقصود أفندي في أذنى أن فضيلته لا شك كان يتوضأ كى يصلى الظهر . وسرد لى في عبارتين مبلغ ورع هذا القاضى وزهده ، وضربنا على الباب ودخلنا . فرأينا القاضى خالعا جبته وعمامته وهو جالس على حصير الصلاة ، فلما رأنا نهض وحيانا وأجلسنا على الكراسى وطلب لنا « زنجبيل » ورأى عبد المقصود أفندي أن يوفر علىّ مئونة بدء الحديث ، فالتفت إلى القاضى الشرعى وقال :

— البك وكيل النيابة غرضه يطلب من فضيلتك ...

فأجاب القاضى سريعا في شىء من القلق :

— خير إن شاء الله . طلب خصوصى أو ...

وذكرتنى هيئته وقلقه بقصة عنه قصها علىّ المأمور قال لى يوما : إن المدير اقترح تحسينا لمظهر المركز ومراعاة للصحة العامة لإنشاء متنزه في وسط البلد ، وقد تبرع بعض الأعيان بما استطاعوا التبرع به من مالهم ، وبلغ القاضى الشرعى ذلك ؛ فذهب إلى المأمور وسفّه له هذا المشروع واقترح أن يقام بدل المتنزه مسجد لعبادة الله وحض الناس على التقوى والصلاح ، فأمن المأمور الخبيث على كلام القاضى وتحمس كراهيه أعظم التحمس ، وقال له :

— لا بد من عرض اقتراح المسجد على سعادة المدير ، وأنا متأكد أنه

موافق مقدا ، وزيادة في إدخال السرور على قلب سعادته نكتب اسم فضيلتك في رأس قائمة التبرعات ، باعتبار أنك متبرع بمبلغ خمسة جنيهات .

وأخبرني المأمور أن القاضي وكأنه لم ينم الليل ، حضر إليه في الصباح المبكر يجرى ويقول له في تردد :

— مشروع المسجد بلغت لسعادة المدير ؟

فأجاب المأمور في ابتسامة خفية :

— طبعا اليوم آخر النهار أنا ناوي أقابل سعادته .

هذه الواقعة تمثلت في رأسي فجأة عندما قال لنا القاضي في قلق :
« طلب خصوصي ؟ » فقد قرأت ما جال في نفسه . فهو لا شك قد خاف أن نكون قادمين لطلب تبرع من هذا النوع . فأسرعت أرد إليه الاطمئنان وأخبره أن حضورنا هو لعمل من أعمال وظيفتنا ، وأخرجنا في الحال من ملف أوراقنا الخطاب الغفل وعرضناه عليه وحادثناه فيما نريد منه فانشرح صدره وقال :

— موضوع بسيط . نشرب الزنجبيل أولا .. ثم ننظر بعد ذلك في أمر

البلاغ ...

وصفق بيديه وصاح :

— يا شيخ حسنين . استعجل لنا الفراش .

ثم صمت قليلا . وعاد فحيانا :

— أهلا وسهلا .. حصل لنا الشرف ..

ورأى عبد المقصود أفندي أن يبدى صلته بالقاضي ومعرفته له فأشار

إليه والتفت إليّ قائلا :

— فضيلته من كبار العلماء الراسخين في العلم .

ووجه الكلام للقاضي :

أنا يا فضيلة القاضي لا أنسى يوم المحاضرة لما رديت على الولد المدرس ..

— ٩٧ —

فقاطعه القاضي مستغفرا مستعيذا :

— أخزاه الله . أنا لا أطيق الصبر على الكفر والجهل .
والتفت القاضي إليّ وقال :

— تصور يا سيدى البك أن هذا الأفندى مدرس جغرافيا فى المدرسة
الثانوية ، ألقى فيها محاضرة علنية عن عالم نصرانى اسمه « شنتون » قال إنه
عرف بالضبط وزن الأرض والسماء ... أستغفر الله العظيم ...
وتأملت قليلا فى الاسم الذى نطقه القاضي . واهتديت آخر الأمر إلى
أن المقصود به العالم الرياضى « اينشتين » ولذلى أن أعرف ما جرى ، فهذا
من غير شك صراع بين عقليتين واصطدام بين رأسين يحلوا لمثلى دائما أن
يشاهده ويقف على مداه ، فقلت للقاضى فى شىء من الاهتمام :

— وحضرت المحاضرة يا فضيلة الشيخ !

— حضرت والأمر لله من قبل ومن بعد .

— وماذا حصل ؟

— حصل يا سيدى أن هذا المدرس قام وقال فى حضرة الباشا المدير
وكبار الموظفين والأعيان . إن هذا العالم الكافر قد أتى بما لم يأت به الأوائل
والأواخر ، فقامت وصحت به : « كذاب يا حضرة المدرس ، لقد قال الله
فى كتابه العزيز : ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شىء ﴾ ؛ فأسكتنى الحاضرون
فسكتُ تأدُّبا لوجود سعادة المدير ، ولولا هذا ما سكتُ ورب الكعبة ،
ثم استمر هذا الأفندى فى كلام لا هو بالمعقول ولا بالمنقول إلى أن قال :
إن عالمه النصرانى قد استطاع بمعادلات جبرية أن يزن الأرض والسماء !
فما تماكنت نفسى ونهضت وأنا أنتفض وصحت به : « مهلا يا حضرة
الأفندى مهلا ، أخبرنا قبل كل شىء ، هل هذا العالم « شنتون » ورن
(يوميات نائب فى الأرياف)

السموات والأرض بالكرسى أم بدون الكرسى ؟ ... فارتبك المدرس ونظر إليّ قائلاً : « كرسى إيه ؟ » ، فرددت عليه بالآية الشريفة : ﴿ وسع كرسية السموات والأرض .. ﴾ أجب أيها المدرس الأفاك ، ها هنا الحاصل والجوهر ، الوزن كان بالكرسى أو بغير الكرسى ؟ .. فكتمت ضحكي وقلت في هيئة الجد :

— وأخيراً ... ؟

— وأخيراً يا سيدى ... لا شيء ، لم يستطع المحاضر أن يجيب ، واحتج وانسحب ، وضع الحاضرون واختلط الحابل بالنابل ، وغضب منى سعادة المدير واعتبرها إهانة لمجلسه ، وترك الناس المحاضرة ، وهى المسألة الأصلية ، والتفتوا إلى اعتدائى على مقام المدير وهى مسألة فرعية ، وتكاثروا عليّ يطلبون إليّ الاعتذار ، فاعتذرت وأمرى الله ! ولكن مع ذلك أشعر أن من يومها والباشا المدير لا ينظر إليّ بعين الرضا ... وسكت قليلاً ثم قال فى لهجة أخرى :

— بمناسبة الحالة السياسية اليوم ، أظن الوزارة الجديدة ستجرى حركة

تغيير وتبديل بين المديرين ورجال الإدارة كالمعتاد ؟

فلم أكد أفتح فمى لأجيب حتى دخل الفراش وهو نصف شيخ ، أعنى أنه يلبس العمامة على جلباب عادى قدر كجلايب الفلاحين ، وهو عارى القدمين . وقدم لنا فنجانين من طرزين مختلفين قد كسر مقبضاهما فشربت فى احتراس وأنا أنظر إلى داخل الفنجان خشية أن يكون فيه بدل السكر صرصار . وفرغنا من الحديث والزنجبيل وبدأنا العمل . وطلب القاضى أوراقاً بخط موظفيه ضاهينها بخط البلاغ فلم نجد مشابهة . وعرضنا البلاغ على من فى المحكمة لعل أحداً يذكر لنا أنه يعرف صاحب

هذا الخط فلم نظفر بطائل ، وخرجنا من المحكمة كما دخلنا ومشينا في طريقنا إلى دار النيابة . فقال عبد المقصود أفندي :
— نمر بالمرّة نفتش سجن المركز ونخلص .

فلم أئيد اعتراضا . وذهبنا إلى المركز فوجدنا المأمور وقد جمع بعض العُمد في حجرته وجعل يشرح لهم وجهة النظر الجديدة ويصدر إليهم تعليماته بنفس الحماسة التي كان يبديها في مبدأ تولى الوزارة السالفة . فما إن رأني وعلم بالغرض من زيارتي حتى خفّ لاستقبالي وأجلسني في صدر حجرته . وفض مجلسه وهو يشيّع العُمد إلى الباب قائلا :

— فتح عينك يا عُمدة أنت وهو . مرشح الحكومة في الانتخاب لازم ينجح ، أنا نفضت يدى وأنتم أحرار ، مفهوم ؟ ...

فأجابوا في صوت واحد :

— مفهوم يا حضرة البك .

وتردد أحدهم وقال :

— فيه يا جناب البك جماعة مشاغين أقويا كلمتهم مسموعة من العائلة

الثانية الكبيرة ...

فدفع المأمور في كتفه دفعا وقال له :

— المشاغين اتركهم لى أنا ! ... تفضل .

فخرجوا جميعا وعاد إلى المأمور يتنفس الصعداء ويقول في صوت

متعب :

— بقى لى يومين بليتين فى القرف ده .

وأردت أن أداعبه وأخيفه قليلا فقلت :

— ١٠٠ —

— لكن يا حضرة المأمور معروف عنك إنك من حزب الوزارة السابقة .

فقال على الفور :

— اسكت اعمل معروف ... أنا طول عمرى مع الوزارة الجديدة بلسانى ، واللى فى القلب فى القلب ؛ والأعمال بالنيات ... فابتسمت وقلت له :

— نترك السياسة ونتكلم فى الشغل ...

وأخبرته بنتيجة فحص الجثة ووجود العظم اللامى مكسورا وضرورة البحث عن المجرم فى جناية الخنق الجديدة ... وطلبت إليه أن يوجه عنايته لمساعدتنا فى الكشف عن الفاعل ... فقال فى الحال :

— المركز مش فاضى اليومين دول للخنق والحرق ...

— عجيب ... انتم لكم شغل غير المحافظة على الأمن ؟ ...

— يعنى حضرتك مش فاهم ؟ ...

— لأ مش فاهم ! ...

— نترك الانتخابات ونلتفت للقتل والخنق ؟ ...

— طبعا ...

— التعليمات اللى عندنا غير كده ! ...

وتركنى وجعل يعبث بقيود حديدية وسلاسل معلقة على حائطه ... وغمزنى عبد المقصود أفندى كى أغلق هذا الموضوع ... وأراد أن يغير مجرى الحديث فقال :

— البك المأمور يسمح بطلب دفاتر السجن ...

وشعرت أن كرامة عملى فى خطر فصحت قائلا :

— ١٠١ —

- لا بد أنى أفتش بنفسى السجن والمركز كله .
ونهضت فى قوة وعزيمة أزعجت المأمور فتردد ثم قال فى رفق :
— تفضل السجن تحت أمرك ... انتظر سعادتك دقيقة واحدة .
وخرج سريعا من الحجرة وهو ينادى :
... يا شاويش عبد النبى ...
واختفى عن نظرى . ودفعتى دافع إلى النظر من نافذة للحجرة تطل
على فناء المركز . فرأيت المأمور والجاويش يسرعان إلى سجن المركز
ويفتحانه ويخرجان منه أشخاصا تدل هيئتهم على أنهم من أهالى النواحي
ذوى الرخاء ويزجان بهم فى حجرة التبن والعلف ويغلقان عليهم بابها
بالمفتاح ، فقلت لعبد المقصود أفندى :
— تعال وطل بعينك ، ده ولا سجن الباستيل . المأمور أخفى بعض
الأهالى فى أودة التبن .
فقال لى عبد المقصود فى شىء من التوسل :
— يا بك ، الوقت بطل ، والسياسة متحركة فى البلد ، مافيش داعى
للتدقيق ..
— يعنى نترك الناس فى الحبس من غير جريمة ؟ ...
— يا سعادة البك ، رئيس المأمور ولا يخفك هو وزير الداخلية ورئيس
الوزراء فى الوقت نفسه ، أما رئيسنا فهو وزير الحقانية ... فقط ،
وقد سبق أن قضاة ووكلاء نيابة وقفوا للإدارة فى ظروف سياسية مواقف
من هذا القبيل قاموا نقلوهم الصعيد ! ...
— يعنى نمضى على دفاتر المركز ونسكت ؟ ...
— يا سيدنا البك ، إحنا حانكون أحسن من مين ... كان غيرنا أشطر ..
— طيب ، قم استعجل لنا الدفاتر والسلام ...

١٩ أكتوبر ...

رأيت أن الطريق الوحيد بعد ذلك أن أبحث عن ذلك المخاطب الذي كان قد تقدم للبنت ريم . ولكن كيف نستدل عليه ونحن لا نعرف حتى اسمه ؟ فلنطلب إذن إلى المركز أن يأتي إلينا بأحد الجيران لعله يعرف المخاطب . وليكن الجار امرأة ؛ فإن المرأة بطبيعتها فضولية ثرثارة . فما من جارة لا تعرف أسماء المخاطبين والمخطوبات في الحارة ، ولكن هل أستطيع الآن أن أكلف المركز بإحضار شاهد أو بالبحث عن مجرم ؟ إن السياسة وحدها هي كل شيء اليوم في المركز ؛ ولن أجد خفيرا يلقي بالا إلى أوامري الساعة . فلنتصل نحن مباشرة بالقرية ونطلب إلى النقطة أن ترسل إلينا المرأة المطلوبة . وأمرت في الحال حاجبي فتقدم إلى آلة التليفون وأمسك بالبوق وجعل يصبح أكثر من ربع ساعة :

— يا نقطة ! يا نقطة ! ردى عليّ يا نقطة ! البك الوكيل جنبي يا نقطة !
ولكن النقطة غضت طرفها الناعس عنا ولم تكلف نفسها عنا الرد علينا .. واشتد غيظ الحاجب وجعلت يده تحرك جرس التليفون بقوة كادت تخلعه . وهو من تليفونات المركز التي لا توصل الكلام بين المتكلم والمخاطب حتى ينقطع نفس الاثنين من كثرة الصياح وحتى ينقطع حبل الحديث مائة مرة ومرة تشتبك خلالها حبال أحاديث أخرى من بلاد أخرى ومن مصالح مختلفة . فبينما يدور الكلام حول إرسال متهم إذا صوت يجيب في مسألة متعلقة بتفتيش الري وبالفتحات ونوبات الترع ، وإذا آخر يتكلم في أنفار القرعة ويطلب طلبات في لهجة الأمر والنهي . على أننا اليوم لا نلقى رداً على الإطلاق . ويد الجرس في يد الحاجب لا يقف لها دوران ، كأنه يدير طاحونة بن . ولا ينفك يصبح تارة مهددا ، وتارة متوسلا :

— ١٠٣ —

— أنا في عرضك يا نقطة ! كلمة واحدة يا نقطة ! إخص عليك
يا نقطة ! ردى علىّ يا ...

فما تمالكت أن صحت فيه :

— شيء لطيف ! أنا قلت لك اطلب النقطة ، مش غازل النقطة ..

— يظهر يا سعادة البك أن النقطة خالية من حضرة الملاحظ

والبلوكامين والكل كليلة ...

— النقطة خالية ...

— أيام انتخابات يا سعادة البك .

— والعمل ؟

— نتصل بدار العمدة ونطلب النفر والحُرمة .

— اتصل .

واستطعنا آخر الأمر أن نظفر بحضور الحرمة الجارة مع « مخصوص »
وكان ميعاد غذائي قد حان . وكان قد أجهدي العمل المعتاد بالمكتب . أعنى
تحقيق التزويرات وقضايا الربا الفاحش والتلبس الوارد من المركز من
« إيراد » اليوم ، وأكثره الآن محاضر « تشرد » ضد الأهالي غير الموالين
للحكومة القائمة . وما أسهل هذا السلاح وما أقواه في يد رجال الإدارة ،
فإن كل نجل كريم من أنجال الأعيان يمكن اتهامه بأنه لا يجترف صناعة ،
ويمكن بذلك القبض عليه وحبسه أربعة أيام بإذن النيابة لحين التحرى عنه
وطلب صحيفة سوابقه من مصر . وأين وكيل النيابة الذى يعارض المركز
اليوم في إصدار أوامر الحبس ؟ وقمت للغداء بعد أن أصدرت من هذه
ما شاء الله والمركز . وعدت بعد الظهر لسؤال المرأة ، فتكلمت كلاما
كثيرا لم أخرج منه إلا أنه الفتى الخاطب يدعى « حسين » وهو ليس من

أهالى البلدة ، بل من بلدة مجاورة .

— اسمه حسين إيه يا ولية ؟ فيه ألف حسين في البلد ، لقبه إيه ؟

— ما اعرفش لقبه يا سيدى . البنت قالت اسمه « حسين » وأنا مالى بقى
أسأل عن أصله وفصله . أنا حرمة غلبانة في حالى ، بعيد عنك ما أكره على
إلا كتر الكلام . أنا طول عمرى يا سيدى في الحارة ما أحشر نفسى في
كلام ولا في سؤال . وأنا مالى ، قالوا يا داخل بين البصلة وقشرتها ...
— اسكتى قلبت دماغى في الفارغ ، داهية تقلب دماغ اللى طلبك .

يعنى لو عرضنا عليك الولد تعرفيه ؟

— أعرفه يا سيدى . يا ندامة ! وأنا بقى خلاص انعميت ... أنا كنت

اسم الله على مقامك ...

— كفاية ... انت واحدة والله الحمد لا تحبى كتر الكلام ولا ...

— كتر كلام ... أبدا وحياة شرفك ... أنا بعيد عنك من يوم ...

— بس !

وناديت الحاجب ، وأمرته بإخراج المرأة وإجلاسها في الدهليز بجواره
تنتظر حتى تُطلب . وكلفته بمخاطبة البلدة التي فيها الفتى ليحضر والفتيان
الذين يسمون فيها باسم « حسين » ممن تنطبق أحوالهم وأوصافهم على
ما لدينا من المعلومات . وجلست أنتظر ساعة وأنا أفكر في قيمة هذا
العرض « القانونى » . إني لا أثق كثيرا بفراسة هؤلاء النسوة . وما زلت
أذكر قضية قتل أتيننا فيها بزوجة القتل وعرضنا عليهم المتهم بين أشخاص
آخرين جئنا بهم عفوا من قاعة الجلسة المدنية المنعقدة في صباح اليوم وكان
من بين هؤلاء شخص منكود الطالع أتى يحمل مستندات شركته في
جاموسة ويسمع الحكم على خصمه بالطلبات . فإذا هو يجد نفسه قد رُجَّح

بين الأنفار الذين أخذوا من قاعة الجلسة ليقفوا في صف طويل في قاعة النيابة ، وقد أخرج عليهم وكيل النيابة امرأة شمطاء ، أمرها أن تبرز القاتل من بينهم . ففترست المرأة الوجوه وهى تدق صدرها وتدعو بالويل على قاتل زوجها ، ودنت من القاتل الحقيقى ومرت عليه مر الكرام ، ووصلت إلى ذلك المسكين صاحب المستندات الذى ليس له فى الشور ولا فى الطحين ، فلكمته فى صدره لكمة كادت ترديه و « رقت » بالصوت :
— غريمى !..

فأرتج على الرجل وقد فوجئ ثم تمالك وقال :

— يا ستى أنا اعرفك ؟

فلم تسمع إليه المرأة ومضت تولول :

— غريمى ! دمي . غريمى ...

والتفت إلى الرجل كالمستجير :

— يا سيدى البك . أنهضنى . أنا عمرى لا شفتها ولا قابلتها ...

فقام وكيل النيابة ، وهو أنا ولا فخر ، بأسئلته « التجارية » المحفوظة عن ظهر قلب ، المعتبرة من « روتين » العمل التى إذا لم تُسأل أحصتها الرياسة علينا هفوة ، وإن لم يكن هناك محل لتوجيهها ، أسئلة سخيفة لا تعنى شيئاً فى ذاتها ولكن القضاء يعتبرها محرجة مضيقة على خناق المجرم :

— بينك وبينها ضغائن ؟

— أبدا يا سيدى ولا أعرفها ...

فتمهلت قليلا لكى ألقى ذلك السؤال الذى يلقيه كل وكيل نيابة وكل

قاض فى ثقة واطمئنان كأنما يلقي يده على الدليل المبين :

— إذن ما سبب ادعائها عليك ؟ ...

— أنا عارف ! ... مصيبة على الصبح وارتمت على ...
— احجزه يا عسكري ! ...
— يحجزني ؟ ... أنا يا سيدنا البك لي قضية مدنية تحت ... اعمل
معروف خليني اروح لشغلي ...
وألقي الرجل في الحبس الاحتياطي ... ونوديت قضيته المدنية فلم
يحضرها بالضرورة فشطببت دعواه وجلس الرجل القرفصاء على الأسفلت
ومستنداته في يده يفكر فيما آل إليه حاله بلا مبرر ولا جريرة ...
تذكرت ذلك وقلت في نفسي : « كلاً لا ينبغي أن نبالغ في قيمة
« العرض القانوني » ، إن هؤلاء الفلاحين بأعينهم التي أكلها الصديد منذ
الطفولة ، ومداركهم التي تركت هملاً على مدى حكم ولادة من جميع
الأجناس لا يمكن أن يركن إليها في حكم أو تمييز ... وهل هناك أعجب
من « عرض قانوني » آخر قمت به في قضية تزوير ، وكان المتهم « أفنديا »
وقد وضعته بين أشخاص مطربشين وجئت بالمجنى عليه الفلاح وأمرته
بإخراج « غريمه » من بين هؤلاء ، فتفرس في الوجوه لحظة ثم ترك الصف
بذكمله ووقف تجاهي أنا وكيل النيابة المحقق وأطال النظر في وجهي وقد
بدت في عينيه علامات الشك الذي سيتبعه اليقين أنه وقع أخيراً على المجرم
الحقيقي ، وكان حاضراً عندي وقتئذٍ أعد كبار مفتشى النيابات زائراً وقد
أراد أن يشهد عملية العرض . فهالني أن يطيل الرجل شكه في أنا فيبدو
للمفتش رأى لا أرضاه ، فانتهرت الفلاح وأمرته أن ينظر في الصف الذي
أمامه ويخرج منهم المتهم . فكان اللعين يمر بالصف مرّاً سريعاً ويعود فيلقى
بصره على ويفحصني من رأسي حتى إخمص قدمي فحصى المشتبه
المستريب . ولن أنسى اضطرابي يومئذ . وقلت في نفسي : « الله يكون في

عون المعروضين « ولم أجد عند ذاك مندوحة من أن أنهي عملية العرض في الحال قائلاً في سرعة : « لم يستعرف المجنى عليه علي أحد » وأمرت الحاضرين بالانصراف ، فخرج الرجل وهو ما زال يختلس إلى النظر . كلا إن تلك الإجراءات التي تتبع في أعمالنا القضائية طبقاً للقوانين الحديثة ينبغي أن يراعى في تطبيقها عقلية هؤلاء الناس ومدى إدراكهم وقدرتهم الذهنية . أو فلترفع تلك المدارك إلى مستوى تلك القوانين ! وحضر المطلوبون وأوقفناهم في صف طويل وأدخلنا المرأة فتقدمت وهي تقول :

— بسم الله الرحمن الرحيم .

ولم أترك لها مجالاً للثرثرة . فقد انتهرتها :

— كلمة ورد غطاها يا ولية . من في الحاضرين الخاطب ؟ ...

فدنت من أقرب الفتيان إليها ونظرت إليه بعينها « العمشاء » نظرة « العرضحالجى الأضبيش » إلى « عريضة » يرفعها في يده حتى تمس أنفه . وقالت له في صوت خافت تريد ألا يصل إلى مسامعي :

— أنت « يا ادلعدي » مش اسمك حسين ؟

فأدركت في الحال مبلغ علم المرأة بما انتدبت لأجله وقلت لها في شدة :

— كل الجدعان اللي قدامك يا ولية اسمهم حسين .

— قطيعة !

— لفظتها المرأة في صوت الواقع في حيرة من أمره ثم اتجهت إلى التالي

وسأله :

— انت منين يا جدع انت ؟

فأجابها الرجل في صوت هادئ :

— ١٠٨ —

— من امبابة يا ستي !
فقلت على الفور في لهجة الجد :
— دى بلد الحمير يا جدعان . دا كان مرة « ادلعدي » جوزى اشترى
منها حمار ...

فلم أتمالك أن صحت :
— اخرجى يا « قرشانة » يا « وحشة » يا قليلة الحيا .. ضيعت وقتنا نهار
بحاله . إخص على دى شهود ...

قلتها من غيظي وأنا ليس من عادتي « القباحة » ، ولكن هذه المرأة التي
أفهمتني أنها رأت الخاطب بعينها وتعرفه إذا حضر أمامها قد اتضح الساعة
أنها لا تعرف إلا اسمه وحتى هذا الاسم الأبتري « حسين » من أدرانا إذا كان
هو اسمه الحقيقي أو أنها كلمة ألقها على عواهنها هذه المرأة « الهجاصة » .
وسألت الحاضرين عن الخاطب فلم أجد بينهم من يفهم غرضي أو من
يعرف شيئا عن الموضوع . فصرفتهم . ولم أدخل إلى نفسي وأفكر فيما
ينبغي عمله بعد ذلك ، حتى فتح الباب ودخل عليّ مساعدى آتيا من
البندر حيث كان يترافع في قضايا الجنايات التي أحلتها عليه وقد رأيت
وجهه نظرا مشرقا وابتدرني قائلا :

— البنادر هي النعيم ، يا خسارة رجعنا بسرعة إلى جحيم الريف !

— أخذت أحكام براءة ؟

— أنا نزلت في أحسن بانسيون وصرفت ضعف بدل السفرية .

— رد على سؤالي . القضايا عملت فيها إيه !

فوجم الشاب قليلا ، ولم يكن ينتظر مني الكلام في العمل والجد منذ
اللحظة الأولى . وكان يحسن بي فعلا أن أكون به لطيفا رقيقا ، ولكن

القضية التي في يدي أتعبت أعصابي ، أو لعل شيئا من الحسد الخفي قام في نفسي إذ رأيت هذا الفتى عائدا كالزهرة المشرقة من ذلك النعيم الذي يقول عنه بينما أنا راسف في أغلال الوظيفة غارق في عمل ذي مسؤولية لا يقف ولا ينتهي ، وتنبهت مع ذلك لخشونتي وأردت أن أبتسم وأتكلم في غير القضايا .. ولكن المناسبة كانت قد فاتت ومضى المساعد يتحدثني عن القضية التي ترفع فيها قائلا : إن المتهم فيها قد حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة لأنه قتل رجلا في نظير مبلغ خمسة جنبيات . فالقاتل رجل سوداني بدوى قوى الجسم يحترف إزهاق الأرواح . وقد اتفق معه أحد الفلاحين على قتل خصم له وحررت الكميالة بثمان « الروح » وانطلق ذلك المحترف حاملا بندقيته كما يحمل الفنان قيثارته ، ووقف بها تحت نافذة المسجد حتى دخلت « الروح » الغالية وسجدت تصلى فأرسل إليها ذلك المتربص من بين قضبان النافذة قنبلة واحدة ذات صفيح من « ماسورة » أرغوله الجهنمي كانت فيها الكفاية وهي صناعة تحتاج إلى ثبات يد ، كصناعة النجارة ، فالنجار الحاذق يضرب المسمار ضربة واحدة لا عوج فيها ولا ميل ، تصيب اللوح في الصميم . وكان مصير هذا الدم الضياع كالمعتاد ومآل القضية البراءة ، لولا خلاف دب بين البائع والمشتري . فالقاتل سلم « البضاعة » حاضرة . ولكن المشتري مطل بالثمن . ولم يطلق القاتل المحترف صبيرا على هذا « الزبون » المتوقف عن الدفع ، فصاح به وسط الجلسة غير مراعاة حرمة قضاء ولا قضاة :

— عايز أقتله لك لوجه الله ؟

وترك « زبونه » والتفت إلى هيئة المحكمة :

— اشهدوا يا ناس على قلة الشرف ، أنا برضه أستحق الشنق ؟ المر

ما قبضت مقدم . هو يخرب البيوت إلا الشكك !!
وضحكت قليلا أنا ومساعدى . وقد أبدت له ملاحظتى على هذه
التجارة أو الصناعة المعروفة فى الريف . وهى الاستئجار على القتل . إن
الفلاح المصرى يلجأ كثيرا إلى محترف يقتل له ، كما كان بعض ملوكنا
الأقدمين يلجأون إلى الجنود المرتزقة . أهو نقص خلقى فى الفلاح يضاف
إلى أمراضه الجثمانية والفكرية والاجتماعية الكثيرة . أم إنها قلة مقدرة
وضعف ثقة بالنفس منشؤها اشتغاله بأعمال العبيد من قديم فى الأرض
والزراعة وترك الفروسية والجنديّة للمغربين وأقربهم بنا عهدا الأعراب
والأتراك . إن الملاحظ على أشهر محترفى القتل فى الأرياف أنهم من دم
أجنبى . أم أن الفلاح يجب السلام ويأنف أن يزاول سفك الدماء بيده التى
تبذر البذر ويخرج منها الخير . لست أدرى . إن الأمر يحتاج إلى درس
خاص . ويكفيننا نحن المتصلين بهذه المسائل أن لا نمر عليها بغير ملاحظة .
وقد أفهمت مساعدى أن مهنتنا سخية بمادة البحث والملاحظة . وأنه
طول حياته بها لا ينبغي أن يسير مغمض العينين فهى خير مهنة تكون
الرجل تكويننا صحيحا . فوكيل النيابة إن هو إلا حاكم صغير فى مملكة
صغيرة إذا فهم كل شىء فى هذه المملكة ، ولاحظ كل شىء ودرس الناس
وطباعهم وغرائزهم ، فقد استطاع بعد ذلك أن يعرف تلك المملكة
الكبيرة التى هى دولته بل استطاع أن يفهم ذلك العالم الأوسع الذى هو
« الإنسانية » . ولكن كم من رجال النيابة أو القضاء : يستطيع أن يلاحظ ؟
إن قوة الملاحظة هى أيضا هبة عظيمة لا يملكها كل الناس . وقد وعى
مساعدى هذا الكلام وهو على قسط وافر من الذكاء . فأطرق قليلا ثم رفع
رأسه وأخبرنى أنه لاحظ أمرا استوقف تفكيره فى جلسة الجنايات ، ذلك

أن المستشارين ينطقون بادئ ذي بدء بالحكم . ثم ينصرفون بعد ذلك إلى كتابة الأسباب . والمنطق الذي يتصوره هو أن يكون الأمر على العكس . ملاحظة قيمة . ولقد أخبرني فعلاً أحد المستشارين من أهل الصراحة أنه بعد أن نطق ذات مرة بالحكم في جنابة خطيرة ورجع ليلاً إلى مكتبه وورقه وملفات القضية ليكتب الحثيات ، وقع نظره على أقوال وعبارات في محضر جلسة اليوم ، وفي المحاضر السابقة ، وفي تحقيق النيابة استخلص منها تفكيره الهادئ الرزين في ذلك الليل الساجي ما لو عرفه قبل النطق بالحكم لكان حكمه قد تعدل وتبدل . ولكن ما العمل الآن وقد تم النطق بالحكم وما من سبيل إلى تغييره بأي حال ؟ لا يستطيع أن يصنع شيئاً . فجعل همه تلك الليلة أن يستخرج من الأوراق جميع الأسباب التي يبررها النطق بالحكم . وكم من الحثيات الطويلة تكتب تبريراً وتدعيماً للحكم سريع مضي النطق به ، لا تفسيراً لعدالة ولا تمحيصاً لحقيقة ..

٢٥ أكتوبر ...

قمت في الصباح بمجرد خزينة المحكمة . فالنيابة هي التي من شأنها مراقبة الخزينة ، وعليها أن تقوم بهذا الجرد مرتين على الأقل في كل شهر بطريق المفاجأة . ويظهر أن كلمة « المفاجأة » وضعت في اللوائح والتعليمات من قبيل التشويق كما توضع في إعلانات المسارح ، فهي في العمل لا وجود لها . وقد جرت العادة أن ينسى وكيل النيابة لكثرة مشاغله هذا الجرد فلا يذكره به إلا الصراف المقصود مفاجأته ، فهو الذي يطلب في إلحاح حضور البنك الوكيل « ليفاجئه » بالجرد في تمام العاشرة قبل إيداع الأموال في خزانة المديرية حتى يسدد الخانة طبقا للقانون . وفي أكثر الأحيان لا يشعر وكيل النيابة إلا وقد فوجئ هو بالدفتر الخاص بالخبزينة يُعرض عليه مع المحضر محررا باسمه « نحن فلان وكيل النيابة قمنا اليوم فجأة بجرد الخزينة ، فوجدنا بها كذا أوراقا مالية وكذا فضة وكذا أشياء ثمينة وكذا أمانات » ، فيوقع وهو لم يتحرك من كرسيه وهو يقول : « خذوا إمضا وخلوا عنى بلا وجع دماغ » غير أنى أنا شخصيا أنتقل بالفعل وأشهد الخزينة وإن كنت أوقع آخر الأمر على كل حال دون أن أطيق صبرا على عد النقود التي توضع أمامي . وانتهيت من هذه المأمورية ، وعرجت على مخزن النيابة في طريقي أفتشه « بالمره » وهو عبارة عن حجرة تشبه دكان « ألف صنف » فيها من أصناف البنادق والغدارات الريفية والسكاكين والشراشر والمناجل والفؤوس والبُلَط والنبابيت والهراوات و « اللبُد » و « البُلَسِغ » و « الجلابيب » المملطخة بالدم والطين و « الصدارى » المثقوبة بالرش والبارود ؛ كلُّ عليه رقمه وتاريخ ضبطه ورقم القضية التي ضبط على ذمتها . وعندى أن نظره واحداة تلقى في مخزن نيابة أى بلد تدل في الحال

— ١١٣ —

على لون هذا البلد وعقليته ودرجة حضارته . ولا شك عندي في أن مخزن نيابة « شيكاغو » مثلاً لا يمكن أن يحوى مطلقاً هراوة أو شرشرة . وصعدت بعد ذلك إلى مكنتي ، فوجدت حضرة القاضي « المقيم » في الانتظار وقد أحضر له الفُراش القهوة ، فما كاد يراني حتى صاح :

— خلاص الفوضى دبت في البلد !

فأردت أن أفتح فمي أسأله الإفصاح ، فلم يمهلي ومضى يقول :

— راحت هيبة الأحكام !

— إيه المسألة ؟

— المسألة يا سيدي أني أصدرت حكماً مدنياً ضد عمدة من الموالين

للحكومة وراح المحضر ينفذ عليه ، تعرف حصل إيه ؟

— لأ .

— انضرب بمعرفة العمدة « علقه » لكن « نضيفه » وانحبس أربعة

وعشرين ساعة في حجرة التليفون .

— والمركز عمل لها قضية ؟

— أبدا . ما هي هنا الخطورة . لا قضية ولا مذكرة ضحكوا على

المحضر وقالوا له يسحب شكواه وصرفوها .

— ما داموا صرفوها انتهينا .

— انتهينا ازاي ؟ أنا لا يمكن أسكت عن مسألة زي دي . دا اسمه

إجرام ! البوليس يجرم ...

— يظهر ان حضرتك اشتقت لحرّ وجه قبلي .

— ينقلوا قاضي وجه قبلي . لأنه أراد منع المركز من العبث ؟ ...

— عملوها كثير . وسبق نقلوا قاضي أقاصي الصعيد لأنه أفرج في قضية

(يوميات نائبه في الأرياف)

معارضة عن متظاهرين ضد الحكومة ، مع أن هذا القاضى كان من المحايدين البعيدين عن الأحزاب وعن السياسة . ولا يخفى أن بينك وبين المأمور سوء تفاهم عائلى وساعتها تلقى المأمور حرر التقارير السرية عنك واتهمك بأنك من خصوم الحكومة ، وأنتك من أرباب الفتن والفسائس ، وأنتك تضطهد أنصار الوزارة ، وأنتك خطر على سياستها الحاضرة إلى آخر هذا الأسلوب المعروف .

— شىء جميل . البوليس يحرر التقارير السرية ضد القضاة ؟

— حصل .

— والعمل إليه ؟

— اترك لى المسألة . أنا أتحرى من المركز بلطف وأجرى اللازم ...

— لهذا الحد تعبت السياسة عندنا بالعدالة والنظام والأخلاق ، أعوذ

بالله ! شىء مخيف ...

وجعل يهز رأسه أسفا وحنقا . ثم التفت إلى فجأة وقال :

— دا صحيح ، تصور فضيلة القاضى الشرعى « الضلالى » عامل اليوم

أنه صديق المأمور الحميم مع أنه كان يكرهه كراهة التحريم من بعد حادثة

الأجزاخانة !

فأبدت عجبى . إنى حقيقة كنت قد سمعت من المأمور فيما سمعت من

أخبار القاضى الشرعى هذه الحادثة : أن أهالى البلد وأعيانها لاحظوا افتقار

البلد إلى أجزاخانة « أصولية » تغنيهم عن البنادر الكبيرة فاكتبوا فيما بينهم

بمبالغ أسسوا بها أجزاخانة نظيفة كاملة الأدوات وعينوا لها

« أجزجى » قانونى هو رجل سورى يسمى « جبور » ثم تباحثوا فيمن

يصلح مشرفا على مالية هذه الأجزاخانة وعلى إدارتها ، ووقع الاختيار

— ١١٥ —

في آخر الأمر على فضيلة القاضي الشرعي . ومَن غير فضيلته بلحيته الوقورة وسبحته الطويلة يؤتمن في هذه البلدة على أموال المسلمين وغير المسلمين من المساهمين ؟ ووافق المأمور على تنصيب القاضي الشرعي مشرفا وتكرّم فضيلته وتسلم مهام عمله بأن جعل مجلسه عصر كل يوم أمام باب الأجزاخانة حيث يتنحج ويبدأ باسم الله والصلاة على نبيه وصحبه . ثم يصيح :

— يا خواجة جبور . القهوة والشيشة !

ثم يجتمع عليه من أصدقائه وأقاربه الآتين من الكُفُور عدد كثير كل يوم ، فيأمر لهم بالقهوة أو الشاي . وكل هذه الطلبات طبعا على حساب الأجزاخانة . وهو لا ينسى مطلقا أن يلقي نظرة على مستحضرات المحل قبل انصرافه وهو يقول لجبور :

— عندك صابون ممسك من العال ا زجاجة « الريحة » ، « الكلونيا »
دى لا بأس بها ا ...

ولا يكاد يدخل فضيلته منزله حتى تكون هذه البضاعة التي أعجبهته قد سبقته إلى البيت . ويُجلس أحيانا أطفاله إلى جواره بيناب الأجزاخانة أو يتركهم يلعبون حوله فإذا جاعوا أو بكوا صاح القاضي في الأجزجى القانوني :

— يا خواجة جبور ! هات للأولاد كم قرص نعناع من عندك ا
حتى ضاق ذرع الأجزجى جبور آخر الأمر . فصاح في القاضي ذات
يوم :

— شوها العما ا

— ١١٦ —

ونشب الشجار بين المشرف والأجزجى . وأقسم جبور أن يكسر ساق القاضي إذا حضر إلى الأجزاخانة بعد ذلك . واستغاث بالمأمور ، وعرض عليه ما وصلت إليه حالة الأجزاخانة . فإذا هي موشكة على الإفلاس ، فقد اختفت مستحضراتها ، ونضبت مواردها ولم يبق أمل في بقائها ؛ فإن الأجزجى هو الآخر اقتداءً بفضيلة المشرف الوقور لم يقصر في الإجهاز من جهته على الباقي من « الدرج » والبضاعة والأدوات ، وتغيظ المأمور وصاح في الأعيان المساهمين :

— الحق علينا اللي صدقنا اللحية والسبحة !

ومنذ ذلك اليوم والمأمور دائم التشهير بالقاضي الشرعى ، والقاضي الشرعى من جهته دائم التئيل من المأمور .

ولكن السياسة قد جعلت رجال الإدارة اليوم أصحاب سلطة مخيفة . وقد خشى فضيلته على نفسه ، ورأى بحكمته أن الأمان في مصاحبة المأمور . فهل يحجم عن التقرب إليه والتزلف له ؟

مر بخاطري كل ذلك وأنا جالس وأمامي القاضي الأهلئ ، ولم أتمالك فقلت كالمخاطب نفسى :

— لا بأس من الصلح ، لكن في الظروف الحاضرة .. فيه شئ اسمه

كرامة ...

فرفع القاضي يده في حركة ذات معنى وقال :

— كرامة مين يا « مونشير » !

ونهض يريد الانصراف وهو يميل علىً ويقول بصوت منخفض :

— كلام فى سرك . فى يوم حضر إلى بيتى فلاح ومعه خروف وقال

« الهدية » . فقلت له : « هدية إيه يا راجل » ؟ فقال : « الهدية اللي تم عليها

الاتفاق علشان رد الولية مراقى . ففهمت وقلت له فى الحال : « إنت يا رجل غلطت فى البيت إنت قصدك شخص آخر » .

فلم أبد دهشة كبرى وأطرقت برأسى . وسكت القاضى محدثى قليلا . ثم تحرك نحو باب الحجرة وحيانى بيده تحية مختصرة وذهب ، وجلست وحدى قليلا أفكر فى كل ذلك ، ورأيت أن أقوم إلى المركز فى شبه زيارة خاصة لأستطلع من المأمور عما أخبرنى به القاضى . فانطلقت بمفردى وخلفى حاجبى حتى بلغت حجرة المأمور ، فوجدته فى هذه المرة أيضا مع أحد العمدة يحادثه فى شبه عنف ، ولم تكن سيما هذا العمدة تنم عن يسر ولا عن وقار ، ويخيل إلى أنه من أجلاف العمدة . فالعمدة « كالجرادة » يتخذ شكل الأرض التى يولد فيها . فالأرض الخضراء تخرج الجراد الأخضر ، والأرض القحلاء تخرج الجراد الأغبر . وهذا العمدة الأغبر لا شك من بلاد قاصية فقيرة على حدود المركز قريبة من الصحارى . وسلمت على المأمور وقلت له باسم :

— دائما مع العمدة !

فقال فى نبرة تعب :

— نعمل إيه يا سيدى !

ثم أجلسنى وطلب لى القهوة . إذ على الرغم من اعتكافى عنه وعن ناديه ، فهو يحترمنى ولا يحمل لى ما يحمله لغيرى من الضغن ، فإنى حريص دائما مع رجال الإدارة على تنفيذ أوامرى فى مظهر بسيط لا يشعرهم بغضاضة الأمر . واستأذنى المأمور فى إتمام حديثه مع العمدة لينتهى من شأنه ويتفرغ لى فأذنت له . فالتفت إلى الرجل وقال له فى صياح وتهديد :

— طوّل بالك ، أنت يظهر عليك إنك مش عارفتى . والله لا بد من
أنى ...

فقاطعه العمدة مستعظفا :

— أنا رجل غلبان .

فمضى المأمور فى وعيده :

— انتظر ! إن ما كنت أدخلك البرلمان . ما ابقاش أنا مأمور المركز !

— ليه ؟ أنا عملت إيه بس مدخلنى البرلمان ١٢

قالها الرجل فى توسل وارتياح . فضحكت وعجبت . والتفت إلى

المأمور قائلا :

— كشف الانتخابات فى جيبه ، ومش عارف حضرته البرلمان ده

يبقى إيه . ويسموهم عُمد ، ونشتغل معهم !!

ثم عاد المأمور والتفت إلى الرجل قائلا :

— تفضل من غير مطرود !

فخرج العمدة ذليلا كأنه خادم أو مجرم ، وقلت فى نفسى : « هذه الذلة
التي يذوقها فى حضرة رجال الإدارة لن تذهب سدى ، فهو سيذيقها
بعينها لأهالى القرية التي يحكمها ، فإن كأس الإذلال تنتقل من يد الرئيس
إلى الرؤوس فى هذا البلد حتى تصل فى نهاية الأمر إلى جوف الشعب
المسكين وقد تجرعها دفعة واحدة » .

وجلس إلى المأمور يعرف سبب « تشريفى » المركز بالزيارة ، فأخبرته

أنه « الشوق » فابتسم المأمور ابتسامة غير المؤمن بهذا السبب الأفلاطونى ،

ولم أصرّ كثيرا على كلمتى ، وقلت فى هيئة الجد :

— ١١٩ —

— بلغك يا حضرة المأمور أن أحد المحضرين ضربوه وحبسوه أثناء
تأدية وظيفته ؟

فأجاب من فوره :

— ما عنديش خير .

— حصل تبليغ للمركز ؟

— لو كان حصل كنا ضبطنا لها واقعة وعملنا قضية .

— بالتأكيد .

أطرقت قليلا ، وفكر المأمور لحظة ثم قال :

— حد بلغ سعادتك بشيء ؟

— لو كان حد بلغنى كنت فى الحال باشرت التحقيق .

— مؤكد .

— المسألة يظهر أنها مجرد إشاعة .

فانطلق المأمور يقول :

— هى وحياتك إشاعة خارجة من بطن المحكمة لتشويه سمعة المركز ،
وأنت لا يخفك أن حضرة القاضى « طالع فيها » وغرضه يشنع علينا بأى
طريقة ...

وأراد المأمور أن يسترسل ، فبادرت بإغلاق هذا الباب حتى لا أزج
بنفسى فى هذا الشجار القائم بينهما . حسبى أنى أفهمت المأمور من طرف
خفى أنى لست بغافل عن الموضوع ، وأنى لا أحجم عن اتخاذ الإجراء
اللازم فيه ، ونهضت فى الحال ، ونهض معى وقلت مازحا :

— والانتخابات يا حضرة المأمور ... ؟

— عال .

— ١٢٠ —

— ماشية بالأصول ؟

فنظر إليّ ملياً ، وقال لي في مزاح كمزاحي :

— حانضحك على بعض ؟! فيه في الدنيا انتخابات بالأصول !!

فضحكت وقلت :

— قصدي بالأصول : مظاهر الأصول .

... إن كان على دي اطمئن .

ثم سكت قليلا ، وقال في قوة وخيلاء :

— تصدق بالله ؟ أنا مأمور مركز بالشرف . أنا مش مأمور من المأمير

اللي انت عارفهم ، أنا لا عمري أتدخل في انتخابات ، ولا عمري أضغط

على حرية الأهالي في الانتخابات ، ولا عمري قلت انتخبوا هذا وأسقطوا

هذا ، أبدا ، أبدا ، أبدا . أنا مبدئي ترك الناس أحرارا تنتخب كما تشاء ...

فقاطعت المأمور وأنا لا أملك نفسي من الإعجاب :

— شيء عظيم يا حضرة المأمور ، بس الكلام ده مش خطر على

منصبك ؟ أنت على كده ... أنت رجل عظيم ...

فمضى المأمور يقول :

— دي دايمًا طريقتي في الانتخابات : الحرية المطلقة ، أترك الناس

تنتخب على كيفها ، لغاية ما تتم عملية الانتخابات ، وبعدين أقوم بكل

بساطة شايل صندوق الأصوات وأرميه في التربة ، وأروح واضع مطرحه

الصندوق اللي احنا موضيبيه على مهلنا .

— شيء جميل !

قلتها في شيء من الاستغراب ممزوج بخيبة الأمل . ولم أشأ أن أعقب على

ما سمعت . ومددت يدي مسلماً . وخرجت وخرج خلفي المأمور

— ١٢١ —

يشيعنى إلى الباب الخارجى ؛ وإذا بى أرى ، وأنا أجتاز فناء المركز ، شزيمة من الخفراء تتأهب للشحن فى « اللوريات » ، ومن بينهم الشيخ عصفور بأسماله وعوده الأخضر ؛ فالتفتُ إلى المأمور أسأله فى ذلك ، فقال وهو يشير بيده إلى الرجال :

— أنفار قائمة لحفظ النظام ساعة إعطاء الأصوات .

— والشيخ عصفور ما له ومال الانتخابات ؟

— مواويله تؤثر على عقول الفلاحين !

— يعنى منتدب للدعاية !

فابتسم المأمور ابتسامة المصادق على ملاحظتى ، وابتسمت أنا أيضا وأنا أضيف قائلا :

— حتى الشيخ عصفور شغلته فى السياسة !

فنظر إلى المأمور نظرة ذات معنى ، وقال فى تنهد :

— نعمل إيه بس !

وفى هذه العبارة وهذا التنهد كل الكفاية فى جعلى أرئى لحال هذا المأمور وأقدر دقة موقفه ومسئوليته أمام الرؤساء الذين يطلبون إليه نتائج معينة بالذات بكل الوسائل التى يراها مؤدية إلى الغرض ، فإن أحجم أو تردد نكلوا به بغير رحمة ولا شفقة .

ومررت فى سبرى بجوار الشيخ عصفور فابتدرته :

— البنت ريم راحت فىن ؟

فنظر إلى الرجل شزرا ولم يعن بالرد على . فأعدت عليه الكرة فى شىء

من الرفق والاستعطاف :

— ١٢٢ —

— ريم يا سيدنا الشيخ . نَفَسك وِيانا في مسألة البنت ريم !
فهز الرجل رأسه ؛ ولوّح بعوده ، وقال مترنما :

إيش راح ينوبسك

من الشكيان ويفيدك

ليه ما حكمتش

على طيرك وهو في إيدك

فابتسمت وقلت للشيخ عصفور وأنا أشير بأصبعي إلى المأمور :

— قل لحضرة المأمور وهو اللي استلم الطير !

٢١ أكتوبر ...

ما كدت هذا الصباح أرشف فنجان القهوة على مكتبي حتى وردت إشارة تليفونية بوقوع حادثة تسمم في دائرة المركز : امرأة تناولت من مطلقها فطيرة فظهرت عليها الأعراض ، وهي تتهمه بسمها للتخلص من النفقة الشرعية . كلام معقول ، ومسألة تستدعي التحقيق من غير شك . ولكنى من جهة أخرى أعرف قضايا التسمم ، وما فيها من « قرف » خصوصا على الصباح . وأعلم أنى سأنتقل فأجد امرأة عائمة في بركة من القىء والبراز . وكلما وجهت إليها سؤالا تلقيت جوابا ، لا من الكلمات ، بل من ال ... أعوذ بالله ! ولم أتمالك وأخرجت مندبلى وبصقت فيه . وجعلت أفكر في إحالة هذه القضية على المساعد . وطلبتة بالفعل فحضر فسلمته الإشارة ؛ فمر عليها بنظرة سريعة وصاح :

— تسمم ، وأنا عمرى حققت قضايا تسمم أو حتى حضرت تحقيق التسمم !

كلامه هو الآخر معقول . خصوصا التسمم . حتى أنا القديم المتمرن . لا أستطيع تحقيق هذه القضايا إلا ومعى « الاستمارة » المنصوص عنها في تعليمات النائب العمومى . هذه الاستمارة فيها أسئلة معينة بالذات لا بد من سؤاها وتلقى الجواب عنها . وترفق صورة من هذه الأسئلة والأجوبة مع تقرير وجيز بالقطرميز الحاوى « لعينات » القىء والبراز لإرسالها للتحليل . هذا مع عدم نسيان قص أظافر المتهم وقص جيوبه وإرسالها كذلك داخل أحراز مختومة للتحليل الكيماوى . إذ كثيرا ما تكون آثار الزرنيخ عالقة بالأظافر والجيوب . وناديت كاتب التحقيق ، وأمرته بتهيئة اللازم للقيام ، وطلبت إليه الاستمارة المذكورة ألقى عليها نظرة وأتذكر

ما فيها . فأحضرها وأحضر معها التعليمات فقرأت ما يلي :
« فقرة ١٤١ — عند إرسال الأحرار إلى القلم الطبي الشرعى ... على
النيابة أن ترسل فى آن واحد للنائب العمومى ... الاستمارة الآتية بعد
استيفاء جميع الخانات بالضبط :

- (١) تاريخ التبليغ عن الحادثة .
 - (٢) اسم المصاب وعمره وجنسيته .
 - (٣) هل كان المصاب فى صحة جيدة قبل الإصابة ؟
 - (٤) الأعراض التى لوحظت : كالقيء ، الإسهال ، الألم ، العطش ، ألم
الرأس ، الدوار ، فقد قوة الأطراف ، التقلصات ، النعاس ، العرق ،
التبؤس ، حالة الحدقتين ، النبض ، التنفس !
 - (٥) هل كان المصاب يشكو من مذاق خاص فى فمه من الطعام ؟
 - (٦) هل حصل للمصاب تخدير أو تنميل بلسانه أو أطرافه ؟
 - (٧) هل حصل للمصاب غيبوبة ؟
 - (٨) هل حصل له تشنجات أو التواءات بالعضلات ؟
 - (٩) هل ظهرت الأعراض فجأة ؟
 - (١٠) هل سبق أن حصل للمصاب حالة تشبه هذه ؟
 - (١١) الفترة بين تعاطى المادة المشتبه فيها وأول ظهور الأعراض ؟
- ملاحظة — يجب ذكر تواريخ واضحة وساعات معينة عما تقدم ، أى
أنه لا يقال مثلاً بعده اليوم الثانى بثلاث ساعات أو فى يوم (الاثنين) بل يقال
مثلاً ابتدأت الأعراض فى الساعة ٤ بعد ظهر يوم ١٦ شهر كذا سنة كذا
وأول ما لوحظ منها هو كذا وذلك فى الساعة ٣ مساءً أو صباحاً
بالضبط ... » .

شيء جميل جدا !! كل هذه الأسئلة ينبغي أن تطرح على مصاب لا يعرف رأسه من رجليه . والأعجب من ذلك أن نطالبه بأن يخبرنا بأن الأعراض ابتدأت في الساعة كذا بالضبط . إذ لا ينبغي أن يقال مثلا يوم (الاثنين) . بل على هذا المصاب المسكين الغارق في متحصلات جوفه الشاعر بالدوار وفقد قوة الأطراف والتقلصات والنعاس .. إلخ إلخ . باعتبار الاستمارة ... على هذا الرجل أو هذه المرأة الفلاحة الساذجة التي لا تحمل في جيبها ساعة وربما لم تر في حياتها الساعة أن تقول لنا إن الأعراض لوحظت أول ما لوحظت في الساعة ٣ والدقيقة ... بالضبط !!

النهاية . قمنا نصب هذه الأسئلة على رأس المرأة المسمومة . واصطحبت معي المساعد يشاهد حتى تزول حجته في المستقبل . غير أننا ما كدنا نتحرك حتى وردت إشارة تليفونية أخرى قدمها إلى الحاجب فقلت :

— نهار باين من أوله :

وقرأت فإذا هي إخطار من المستشفى الأميري بوفاة قمر الدولة علوان . فصحت : « مات الرجل قبل أن نعرف منه سر الموضوع » . وطلبت قلماً وأشرت في الحال على ذيل الإشارة العبارة المألوفة في مثل هذه الحالة : « نأمر بتشريح الجثة » . وقلت للمساعد أن يذهب لحضور التشريح وإفادتي بنتيجته بمجرد الفراغ منه . فمضى هو إلى المستشفى . ومضيت أنا إلى منزل المرأة التي أكلت الفطيرة ، وكان الأمر فعلا كما توقعت ، وجدت المرأة في صحن الدار وحوها جاراتها لم يتركن فيما يخيل إلى آنية ولا « حلة » ولا « كروانة » في الحارة إلا أتين بها ووضعنها تحت فم المصابة المطروحة أرضاً تتلوي وتحشرج . ونظرت نظرة إلى كاتب التحقيق فهم

— ١٢٦ —

منها أن يفتح المحضر ، وتقدمت بين الأواني المملوءة حتى دنوت من المجنى عليها وسألتها :

— اسمك وعمرك وجنسيته ؟

فلم تجب . ولم يبد على وجهها الباهت المتقلص العضلات أنها فهمت عني . فأعدت عليها الكرّة في شبه صياح ؛ فلم يخرج من فمها غير أنين طويل ممزوج بشروع في قىء جديد . وقد أسرع بعض النسوة إليها يسندن رأسها المائل بأكفهن ، وهن يتها مسن :

— أيوه يسيها في غلبها !

فأجبت مؤمناً على منطقتها وكأني أناخاطب نفسي :

— والله كان بودى أتركها في غلبها ، لكن أعمل إيه ؟ قلم النائب

العمومي في انتظار الاستمارة والقطرميز !

وتشجعت امرأة لسنّة بين النسوة وقالت لي :

— « مش ادلعدى » حضرتك طالب تعرف اسمها ؟ اسمها نبوية .

— نبوية إيه ؟

— لأ ما نعرفش غير نبوية . أهى في الحارة كنا نقول لها تعالى يا نبوية

روحي يا نبوية .

ولكن هذا لا يكفى . ولا بد من كتابة اسمها كاملاً ، فتوسلتُ إلى النسوة أن يساعدننى في حملها على النطق دقيقة واحدة . فتكاثرن عليها ورفعن رأسها الذى لا يريد إلا أن يقع على صدرها وهمستن في أذنها يرجونها الكلام وإجابة البك النيابة . وبعد ذلك بالتمام حركت المصاصة شفيتها فاستبشرت النسوة وشجعنها رابات على كتفها :

— أيوه ... أيوه ، ردى علينا يا حبيبتي !

— ١٢٧ —

فأسرعت أصبح قرب أذنها وقد تصيب العرق منى :

— اسمك ؟ اسمك إيه بقى ؟ ...

فأنت وزامت وقالت فى صوت خافت متهدج :

— اسمى ... نبوية .

فكدت أشق ثيابى :

— مفهوم ! نبوية ! كويس خالص ! لكن نبوية إيه ؟ اسم « أبوك »

إيه ؟ أنا فى عرض « أبوك » ! نبوية إيه ؟

ولكنى أخاطب وأتوسل إلى شبه جثة . فقد انحدر رأسها وسقط على صدرها من جديد . ولزمت الصمت إلا من ذلك الأنين الخافت . وبلغ منى اليأس والضيق ، فصحت فى النسوة صيحة داوية فأسرعن وأنهنها مرة أخرى ومسحن صدغها بالماء البارد وناجينها بالكلام العذب إلى أن ظفرنا آخر الأمر باسمها كاملا . ولكن بقى فى الاستمارة عشرة أسئلة ! وإذا كان ذكر الاسم على بساطته قد اقتضى هذا المجهود ؛ فكيف بالباقي ؟ خصوصا السؤال الأخير . بيان الفترة بين تعاطى المادة المشتبه فيها وأول ظهور الأعراض ؟ مع وجوب ذكر تواريخ واضحة وساعات معينة كما تقول الملحوظة !! أى أن هذه المرأة التى لم تخرج اسمها من بين فكها إلا بعد أن كادت تخرج أرواحنا ستقول لنا عن الساعة والدقيقة بالضبط التى لاحظت فيها ظهور الأعراض أول ما لاحظت ؟ شىء جميل ، أنا مجنون أسأل هذه الأسئلة ؟ أليس فى عينى نظر ؟ ماذا تظن بعقلى هؤلاء النسوة إذا خالجنى طمع فى أن أتلقى من هذه الطريجة جوابا بالساعة والدقيقة عن الأعراض والفترة بين تعاطى المادة وظهور أول ... إلى آخر هذا الكلام المطبوع على استمارة صنعت فوق مكاتب العاصمة فى صفاء وهدوء بال ،

بعيدا عن مناظر القىء والإسهال !! وأومأتُ إلى الكاتب أن « أقفل المحضر »
وأفهمته أن المصابة لم يمكن استجوابها ، واكتفينا بأخذ « عينات » القىء
والبراز وقص أظافر وجيوب المتهم . ثم عدنا إلى دار النيابة حيث ارتيمت
على مقعدى تعباً .

أغمضت عيني قليلا ؛ ثم فتحتها على صوت الباب يفتح وقد دخل منه
مساعدى أصفر الوجه . فأفقت من خمولى فى الحال وابتدرته :

— ما لك ؟

— التشريح .

— آه حضرت العملية ؛ والنتيجة ؟

— النتيجة أنى أنا ...

وجلس على كرسى قريب ؛ فحدقت بنظرى ملياً فى وجهه . ففهمت
كل شىء . إن هذا الشاب قد حدث له ما حدث لى يوم حضرت لأول مرة
تشريح جثة آدمية . هذا الشاب الرقيق الذى خرج بالأمس من بين
الكتب ؛ تلك الكتب التى أرتنا وأفهمتنا أن الإنسان شىء عظيم ، إنه هو
محور الكون ، وأنه المصطفى الملحوظ دون بقية المخلوقات بعناية الخالق
الأعظم ، وأنه الكائن النورانى الروحانى الذى سوف يبعث ؛ هذا الإنسان
لم يتح لكثير من الناس أن يطلعوا على تركيبه من الداخل ؛ فإذا ما اطلع
أحدنا على ذلك سرت فى نفسه صدمة يختلف تفسيرها باختلاف مزاج
الشخص وطبيعته وثقافته ؛ وإنى لن أنسى أبدا يوم وقفت للمرة الأولى على
رأس جثة رجل أصيب فى دماغه بعيار نارى أطلق عن قرب فكسر
الجمجمة وهتك الجدار الأيمن للأذن حتى برز جزء من جوهر المخ ؛
وحضر الطبيب للتشريح ، فقمتم معه أشاهد ما يفعل ؛ وغادرنا الغيط

الذى وقعت فيه الحادثة ، وانتقلنا إلى دار المجنى عليه ؛ وهى دار قروية متواضعة ، وجيء بالقتيل يحمله أهله وقد لفوه فى لحاف جديد « بيرشه » ومن حوله النسوة بعويلهن وصياحهن وطينهن يلطخن به وجوههن ، وكان معى مأمور نشيط أمر رجاله بإخلاء المكان إلا من رجال الحفظ والطبيب وحلاق الصحة ومعاونيه ، وأتوا « بطشتين » كبيرين وضعوهما تحت « دكة » عريضة من الخشب فى صحن الدار ؛ ووضع الحلاق ومعاونوه الجثة فوق « الدكة » وخلعوا ملابس القتيل ، وكانت عديدة احتفالا بعيد الفطر ؛ إذ وقعت الجريمة فى اليوم الأخير من شهر رمضان ، كأنما أراد القاتل أن يسرع خشية أن يحل العيد وغزيمه على قيد الحياة ، وحرصا منه على أن تكون هدية العيد تلك الرصاصة فى رأس القتيل ، ورغبة منه فى أن تتغير نغمة أصوات العيد وأناشيد المتصاعدة من جوف هذه الدار ، وأعمل الطبيب المشروط حالا فى رأس القتيل وهو يميل على الكاتب :

— ونزعنا الفروة (يقصد فروة الرأس طبعا) .

وعندئذ علا صياح النسوة ، وكن قد تسللن وتسلقن سطح الدار والأسطح المجاورة « المعرشة » بحطب القطن والذرة ، وسمعت بين أصواتهن المختلطة صوتا رفيعا حارًا مؤثرا أوجع قلبى يصيح :

— يا شجرة و « مضللانا » يا بويا !..

وتلاه صوت آخر فى مثل رفعه وهيبه وقد امتزج بنشيج وبكاء مر :

— ياللى كنت خارج بسحورك فى بطنك يابه .

وتم نزع الفروة ، ووضع الطبيب أصبعه فى فتحة الجرح يسبر غوره ويعرف حدوده ، وأملى الكاتب :

(يوميات نائب فى الأرياف)

— ١٣٠ —

-- جرح نارى طوله أربعة سنتيمترات ...
وحاول أن يعثر بأصبعه على الرصاصة فلم يستطع .
فناول منشارا من المعدن من حقييته وجعل ينشر الجمجمة من الجبهة
ليفتح الرأس فلم ينجح فى نشرها لصلابتها ، فأخذ مطرقة صغيرة من بين
أدواته وطفق يدق بها فوق المنشار كأنما يدق على علبه « سردين » وسمعت
إحدى العجائز ذلك ورأت من فجوة السطح ذلك الدق و « الهبد » فى
رأس رجل العائلة وعميد الدار فوضعت كفها على خدها وقالت متنهدة :
-- اسم الله عليه !

هذه الكلمة هزتنى . ووجدت لوقعها غرابة . إن تلك العجوز ما زالت
تعتقد أن رجلهن هو رجلهن بشخصيته وآدميته ، أما أنا فمذ لحظة قد
بدأت أشك فى ذلك .

وتم نزع الغطاء أو « القرّاعة » وظهر من تحته الغلاف الرقيق الذى فوق
المخ «باشرة» . فمزقه الطبيب بمشرطه ، وجعل يفحص ما حول الجرح وهو
يملى :

--- نزيف دموى شديد بأنسجة المخ ..

وجعل يبحث بأصبعه عن الرصاصة فلم يجد شيئا . واستمر فى البحث
حول تلك المنطقة القريبة من الجرح فلم يعثر للرصاصة على أثر . أين
ذهبت إذن ؟ وليس هنالك من فتحة أخرى يظن أن المقذوف خرج منها .
ولم يئأس الطبيب . وقال لى باسم : إن المقذوف النارى يتخذ أحيانا خطوط
سير عجيبة فى جسم المصاب وأحيانا تدخل الرصاصة من البطن فلا يعثر
عليها إلا فى الفخذ . قد يكون هذا معقولا . ولكن رصاصة تدخل من
الرأس تستخرج من القدم ؟ هذا شغل « حواة » ولا أصدق أن الرصاصة لها

— ١٣١ —

كل هذه المقدرة . واستاء الطبيب أخيرا فصاح :

— وعلى إيه ؟ أدى نغ الرادل بناله ...

وأخرج بكلتا يديه كل ما فى اللملمة من نغ حتى أخلاها فأصبحت مثل « السلطانية » النظيفة ، وقسم هذا المخ أقساما أربعة أعطى كلاً من معاونيه قسما وكلفهم أن يبحثوا عن المقذوف بحثا جيدا ، فاجعلوا « يلغوصون » بأصابعهم فى هذه المادة التى يُعزى إليها كل نبوغ الإنسانية ، حتى صيروها شبه سائلة كالمهلية ؟

هذا هو نغ الإنسان !

قلت ذلك همسا لنفسى ؛ وقد بدأ الروح الذى أخذنى أول الأمر يزول عنى شيئا فشيئا . وتصلبت أعصابى وهمد إحساسى وتيقظ فى نفسى حب استطلاع ورغبة فى أن يفتح أمامى كل هذا الجسم المسجى لأنظر فيه . وما دمت قد رأيت المخ هكذا فلنر القلب ولنر الكبد ولنر الأحشاء ، لم يعد هذا الرجل فى نظرى رجلا ، إنما هو ساعة حائط كبيرة ممدد أريد أن أفتحها لأشاهد آلاتها وتروسها وعجلاتها وأجراسها .

ولم يجد الرجال شيئا كذلك بعد البحث الطويل . إنه لسوء حظ كما قال الطبيب ، ولكننا مطالبون بالنتيجة على أية حال . ها هو ذا القليل ولا بد أن تكون الرصاصة فيه . وشمر الطبيب عن ساعد الجد والضيق وأعمل المشرط فى ذلك الجسد ، وأنا من خلفه أشاهد وأقول :

— اقطع ! اشْرط ! ...

وأخذتنى حمى غريبة وفقدت كل شعور إنسانى فجعلت أقول للطبيب : أرنى رثيه ، أرنى أمعائه ، أرنى الطحال .. إلخ إلخ . ولم يتردد الطبيب . وشرط الصدر حتى أسفل البطن وأخرج القلب ثم الأمعاء وأملى :

— ١٣٢ —

— وحدنا القلب سليماً ، والأعضاء بها طعام مهضوم ، ولم نعثر مع كل ذلك على شيء . ففكرنا ملياً . فاتضح لنا أن الرصاصة قد تكون سقطت من نفس الجرح لاتساعه وثقلها وسقطت بسقوطه على الأرض .
وفرغنا من العمل وانصرفنا وأنا أعجب لما حدث في نفسي من انقلاب . أنا الرقيق الحس أرى الجُزر والتقطيع ، بل وأمر به ولا أرتعد ! ثم أتى خيبة أمل ! لقد كنت أحسب الإنسان أعظم من ذلك ! كلا ، لا ينبغي أن نرى أنفسنا من الداخل . إن صورة ما رأيت لا يمكن أن تزول من مخيلتي . ولا ريب أن تلك المناظر قد أحدثت في نفس مساعدي أحداثاً . وأردت أن أسأله في ذلك . ولكن الباب فتح وظهر حاجبي ومعه إشارة تليفونية فقلت :

— اللهم خيراً !

وتناولت الإشارة وما كدت ألقى عليها نظرة حتى صحت :

— البنت ريم ؟ ..

فأسرع مساعدي متلهفاً :

— ما لها ؟

— وجدوا جثتها في الرياح قبلي البلد ؟

— وماتت ؟

— قلت لك وجدوا جثتها ، خذ اقرأ الإشارة !

فأخذ المساعد الورقة وجعل يقرأ بعينه حتى وصل إلى آخر عبارة وهي « ويحتمل أن سبب الوفاة اسفكسيا الغرق » ، وقفت عيناها عليها لحظة من التأثر ، وكنت أنا أشد منه حزناً على انطفاء حياة هذا الشيء الجميل بهذه السرعة .

وأطرقت قليلا أفكر في سوء حظنا ، لا من حيث العمل ، ولا لأن ريم مفتاح من مفاتيح القضية ؛ بل لأنها كانت صورة بديعة هزت نفوسنا جميعا عاقلنا ومجنوننا ، ومخلوقا حلوا منحنا أويقات حلوة والحظات مشرقة ، ونسيما عليلا هب على صحراء حياتنا العاطفية المجذبة في هذا الريف القفر .

واستيقظت من تفكيري ، ورفعت رأسي ومددت يدي إلى مساعدى أسترد الإشارة وأخط عليها العبارة المألوفة : « نأمر بتشريح الجثة » ، وفجأة تنهت إلى فظاعة هذه العبارة ، نعم لأول مرة أجدها فظيعة ، طالما شرحتنا جثثا ، فليكن ، وإني لعلى استعداد لتشريح نصف أهالى هذه البلدة ، أما هذه الفتاة ... أما هذا الجمال فحرام أن تمزقه ونرى ما بداخله ، ولمح مساعدى نص الإشارة بنظره الحاد فصاح :

— أظن ناوى تقول لى احضر التشريح !

— ومين غير حضرتك !؟

— مستحيل ، أنا أولا كفاية على تشريح الصبح ! حرام ! أقعد طول النهار أشاهد فتح جثث ! أنا مساعد نيابة مش مساعد حانوقى ! ثانيا البنت دى بنوع خصوصى ...

فتأملت قوله ، وعذرتة ، وأطرقت لحظة ثم قلت :

— لك حق ، ريم بنوع خصوصى ! من له قلب يحضر ... أنا لو دفعوا لى عشرين جنيها .. ! هات الإشارة نشطب على التشريح ونأمر بالدفن ونخلص ...

والواقع أن فى أيدينا أن نفعل ذلك بدون أن نتعرض للنقد والمسئولية ، فالطبيب الذى كشف عن الجثة عقب استخراجها من النهر قرر أن الوفاة

— ١٣٤ —

من اسفكسيا الغرق ، أى أنه لم يجد آثارا مشتبه فيها تدل على أن الرفاة جنائية ، فإجراء التشريح في هذه الحالة دقة لا مبرر لها ، آه لرجال الفقه والقانون أصحاب الغرض ! إنهم يستطيعون أن يتصرفوا على كل وجه تصرفا منطقيا مقبولا ! وما كدت أمسك بالقلم لأشطب الأمر السابق حتى سمعنا صياحا في الطريق ، فقمنا إلى النافذة ، فإذا بنا نرى الشيخ عصفور يجرى في الطريق ، عارى الرأس بدون عوده الأخضر ، والصبية والغلمان وجمع من الأهالي خلفه وهو يصيح كالجنون :

ورمش عينها يا ناس
يفرش على الميّه
واحدة يياض شفتشى
والتانية بلطيه
والتالته من بدعها
غرّقتها فى الميّه

وصار يردد ذلك بصوت تارة كالعويل وتارة كالزئير ، وتارة في حركات كحركات خطباء المساجد وهو يمشى أحيانا ويرقص أحيانا ويجرى في كل جهة حتى اختفى عن أنظارنا ، فلبثنا عند النافذة صامتين مأخوذين ؛ ثم انتبهنا بعد لحظة وعدنا حيث كنا من الحجرة ونحن نقول كمن يخاطب نفسه :

— مسكين !

وعدت إلى الإشارة ، وأمسكت بالقلم من جديد ، ولكن الشك والقلق خالجانى ..

— ١٣٥ —

— سمعته لما قال : « غرقها في الميَّه » ! من اللي غرقها ؟!
فقال المساعد :

— دي « هلوسة » مجانين ! حانفتح تحقيق بناء على « خطرقة » رجل
مخبول في الشارع ؟! أظن الأحسن ندفن البنت وننتهى !
فمحا قوله ترددي ، وضغطت على القلم ضغط العزم والاعتناع
وخططت أمر الدفن وأنا أقول :

— صدقت ، أنا حتى نفسي انصدت عن القضية وأصحابها !!

٢٢ أكتوبر ...

استيقظت اليوم متأخرا . فقد سهرت أكثر الليل في التهام الأوراق المتأخرة . إذ بعد أسبوع تبدأ السنة القضائية الجديدة . ومعنى هذا أنه لا ينبغي أن تبقى عندي قضية واحدة لم يتم التصرف فيها من قضايا العام المنصرم . ومعنى هذا أيضا أنه يجب أن أحبس نفسي طول هذا الأسبوع حتى أنظر في المتأخر من أكداس « الشكاوى » التي فاضت بها خزائني .. آه من هذه الشكاوى ! إنها أكثر عددا من ذلك « البق » الزاحف جيوشا على حائط دار النيابة الرطب المتهدم ! يخيل إلى أن الشكاوى لا تنزل على رأسى كالوابل إلا أيام الأسواق ؛ كأن الفلاح إنما يخرج إلى سوق الخميس من كل أسبوع يبيع كيلة ذرة ليشتري قليلا من السكر والشاي ويملا زجاجة « السيرج » ويستكتب أحد الكتبة العمومية « بلاغا » أو « عريضة » ضد مآذون الناحية أو العمدة أو وكيل شيخ الخفر . ولعل هذا أصبح بندا ثابتا في ميزانية كل خارج إلى السوق من هؤلاء الفلاحين . لست أدري لذلك من سبب . أهو الظلم حقا ! أم هو داء الشكوى استوطن دم الفلاح على مدى أحقاب من الجور مرت به حقيقة ! على أى حال ، ما ذنبى أنا أجرع ما فى هذه الأوراق من سخف . يظهر أن حضور جلسات المحاكم وضبط قضايا التلبس في النهار ، وقيد وارد الجُرح والمخالفات في المساء ، والانتقال لتحقيق وقائع الجنايات بالليل ، كل هذا لا يكفى وكيل النيابة في الأرياف ؛ فهو ما زال يجد وقتا يتنفس فيه ... فلتسد عليه إذن مسالك الهواء بأكوام الأوراق التافهة الآتية من المركز باسم « الشكاوى » و « العوارض » و « الأحوال » . ومعنى هذا أيضا أنى أما الشخص الضعيف الجسم والبنية الدقيق الحس والشعور الذى يتوق إلى

نصف الساعة يفرغ فيها إلى مطالعة كتاب جميل ، ينبغي لي أن أقرأ أيضا ما جرى بين « ست الدار » وجارتها « قطايف » من تبادل « الردح » والسبب وما تلقاه المركز من بلاغات فقد الأختام و « محاضر » البحث الجارى عن جحش هرب من أمام الباب ، وإصابة قدم طفل داس على قطعة زجاج ، وسقوط فرع جميزة على رأس كبش الحاج هباب إني والله لأعذر ذلك النائب فى الصعيد الذى قيل إنه كان يعبر النيل فى قارب للوصول إلى مقر عمله وكان معه حمل من هذه « الشكاوى » حار فى أمره فأوماً إلى صاحب القارب ، فمال بقاربه على أحد جنبيه ميلا أسقط « الشكاوى » فى الماء ! ويزيد فى بلائى أكثر من هذا إلحاح عبد المقصود أفندى رئيس القلم الجنائى . فهو المنوط بإرسال « كشوف » القضايا فى مواعيدها إلى النائب العام ووزارة الحقانية . هذا الرجل لا أرى له عملا عندى غير التنقل بين الحجرات حاملا فى يده ورقة يأمر هنا وينهى هناك . حتى عملية « التنفيذ » التى من نصيبه قد ألقى بعبئها على غيره من مرؤوسيه واكتفى هو « بمهمة » الصباح فى الكتبة والحجاب . وهو أول من ينصرف من الموظفين واضعا على طرف أنفه عويناته الذهبية ، يرسل من خلالها نظرات صريحة إلى المجتمعين فى أروقة دار النيابة من وكلاء المحامين وأرباب القضايا كأنما يستحثهم على الوقوف له . ولا حديث عنده إلا ذكر علاقاته وصلاته بكبار الموظفين ، يقول ذلك فى زهو وانتفاخ . ولطالما طلبت إليه حسابا عن عمله فيجيبني دائما :

— أنا والله الحمد لا أميل إلى الأبهة ولا إلى الفخفة !

ترانى سألته فى ذلك ؟ لم يحدث قط : يخيل إلي أن من الناس من يلقي الكلمة يدفع بها عن نفسه فإذا فيها الاتهام الصارخ ولعل كل منهم يحمل فى

(يوميات نائب فى الأرياف)

طيات كلامه دليل إجرامه ، كما يحمل المريض في دمه جرائم دائه !!
لا بد إذن من العمل المضنى حتى تختم السنة القضائية على خير ، وقد
أمرت بإغلاق أبوابى على حتى أنفرد لهذه الملفات أتصرف فيها باليمين
وبالشمال ، ومضيت أعمل وأنا أقول : « خذ من التل يختل » ! ولكن الذى
وضع هذا المثل كان يقصد بالتل النقود والذهب . أما أوراقى « الشكاوى »
فهى تل دائم النمو ، لا يختل ولا يزول .

وهل تنقطع للإنسان « شكوى » على هذه الأرض ما دام هو إنسانا ؟
ونسيت نفسى فى العمل ، فلم أسمع إلا طرقة خفيفة قيل إنها وقعت على
الباب . ولكنى رأيت رجلا أنيقا فى وسط الحجرة يتنسم لى وخلفه
حاجب يحمل حقيبتين . عجبا ! هذا زميلى وكيل نيابة طنطا ! ماذا أتى به ؟
وما هذه الحقائق ؟ ولم يترك لى زميلى وقتا للتساؤل . فقد أشار إلى حاجبه
أن يضع الحقيبتين على الأرض وينصرف . وما إن صرنا وحدنا حتى جثا
على قدميه أمامى فى حركة تمثيلية وقال :

— أنا وقعت من السما وأنت تلقفتنى !

فنظرت إلى يدى الهزيلتين ثم إلى جسمه الممتلئ :

— أنا تلقفتك ؟ ونزلت « صاغ » سليم !

— اسمع ! الموضوع جد . أنت رجل معروف بيننا جميعا أنك صاحب

همة ومروءة و ...

هنا لعب فى « عبى الفار » وأدركت أن هذا الزميل قد ترك مقر عمله
طنطا فى هذا الوقت العصيب وقت مولد السيد البدوى وما يتبعه من
ازدحام المدينة بأفواج الوافدين وكثرة الحوادث والوقائع التى تصحب
عادة كل مولد وكل ازدحام . ترك ذلك وأتى إلى ي طلب ولا شك إلى همتى

— ١٣٩ —

ومروعتي معونة كبرى ! ترى ما نوع هذه المعونة ؟ وخامرني قلق ، وأردت
أن أعرف سريعا ما يريد مني حتى أطمئن فقلت :
— أنا في خدمتك !

فما تكاد يسمع هذه الكلمة المشجعة حتى قام إلى رأسي يقبله ويقول في
صوت كصوت « الشحاذين » :

— ربنا يخليك ويقيك ويمد في عمرك و ...
ثم تركني وأسرع إلى حقائبه وقال لي :
— تسمع ؟

فقلت له وقد حمدت له في نفسي ذوقه ومراعاته اللياقة في الزيارة :
— والله ما كان فيه لزوم تكلف نفسك هدية .

وفتح إحدى الحقيبتين وأنا أتوقع أن أرى فيها على الأقل حمصا من
حمص السيد البدوي وفي الأخرى حلاوة المولد ... ولكنه أخرج أحمالا
من أوراق « الشكاوى » ووضعها على مكتبي وهو يقول في تواضع :
— هديتنا على قدنا .

فنظرت إلى الأوراق في روع وتمتمت :
— أعوذ بالله !

وجعل هذا الضيف يخرج الأكداس يَلَوُ الأكداس وهو يقول :
— النبي قبل الهدية !

فلم أجد ما أقول لهذا الإنسان الذي يصر على أن يسمى هذه
« السخرة » هدية ، ولعنت في نفسي قولهم إن « النيابة لا تتجزأ » هذا المبدأ
الذي نسير عليه ؛ وهذا النظام الذي يفرض التضامن بين كل أعضاء
النيابة ، ويعطى الحق لوكيل نيابة أسوان أن يتصرف في قضايا وكيل نيابة

الإسكندرية دون أن يبطل تصرفه اختصاص مكاني أو زمني . لعنت ذلك
ولعنت الضيف ولعنت نفسي إذ أن لي حقيقة من سوء حظي صيتاً بين
زملائي .. بأني من أصحاب الهمم خصوصا في الشكاوى الإدارية وسرعة
التصرف فيها . وقد نقل عني الكثير من إخواني أعضاء النيابة طريقتي في
قراءة الشكاوى . فهم يقولون إنني أقرأ الشكاوى من آخرها لا من أولها
وهذا صحيح فأنا لست مجنوناً حتى أقرأ الأوراق من أولها كما يقرأ الناس
والعقلاء ! لو فعلت ذلك لما انتهيت . ولكنني أضرب صفحا عن الديباجة
وما فيها من « أنتم يا ملاذ العدل ويا نصير الحق ويا مبيد دولة الظلم
ويا ماحق ... إلخ إلخ » ، وأنظر في الحال إلى السطر الأخير ففيه عادة لب
الموضوع . وهذا اللب أيضا قلما أجده لباً ، وكثيرا ما يجري فيه قلمي
بالكنس ، أي « بالحفظ » في سرعة وجرأة وهمة أطمعت في الزملاء
الموروثين الغارقين في بحار هذا « الواغش » ، ولكنني اليوم آخراً من يعين
الناس . إنني أنا نفسي في حاجة إلى المعونة . وإن هبوط هذا « الضيف » عليّ
كما تهبط المصيبة لأمر شاق على النفس . ولم أتمالك ، وتجهمت للشكاوى
الخارجة من الحقائق وقلت في سخرية المغيظ :

— يا سلام ، يا سلام على حمص الموالد ! حاجة تشرح القلب صحيح .

فقال الضيف وهو ينفذ يديه من آخر ملف :

— كان غرضي أجيب لك شوية حلاوة ...

فقاطعت صائحا مرتاعا :

— من الصنف ده ؟

فاستمر في قوله باسم :

— لكن والله غاب عن فكري في آخر لحظة ...

— ١٤١ —

— الحمد لله جات سليمة ! ...

فضحك الزميل المحترم . وجاءت القهوة فشرّب هنيئاً ثم قام فدار دورة في الحجرة واقترّب من النافذة كما دته التي أعرّفها عنه وأطلق بصره فيما حولنا من منازل قليلة وغمز بهينه .

— في البيت ده بنت حلوة !

فبادرت إليه وجذبتّه من ذراعيه بعيداً وأنا أقول له :

— كنت فاكرك عقلت وبطلت الهلس !

فقال باسمها وهو يعود إلى الحجرة ويجلس على مقعد :

— أبطل ازاي ، « البصبصة » في دمي !

وجعل يذكرني بأيام « ديروط » حيث كنا نعمل معاً في نيابتها ، وطلب

مني سيهارة طنق يدخنها ويقول :

— فاكّر في ديروط لما كنا نقف في الشبايبك نبحت بعيننا فوق

الأسطح عن قديص حريمي مشفول « بالتتنة » لأجل بس نطمئن على

وجود صنف النسوان في البلد !

الواقع أنها بلاد قريبة من الفطرة والوحشية ! هذا الوجه القبلي من مصر

شيء مخيف لساكن الوجه البحري ، إن المرأة هناك شبح لا يرى ولا ينبغي

أن يرى . وهي مخلوق جاف لا فرق بينها هناك وبين الرجل . كلاهما شيء

لا أثر للرقّة فيه . وكلاهما في الجسم والطبع والروح كتلك الأرض السوداء

التي يعيشان عليها وقد جف عنها النيل في زمن التحريق ! آدميون قد جف

عن تركيبهم ذلك الماء الذي فيه سر امتياز الآدميين .

ونفخ صاحبي الدخان من أنفه وفمه ثم استطرد :

— ١٤٢ —

— لعنة الله على دى بلد ! أنا أراهن أن تسعة أعشار أهالى ديروط لو
تكشف رعو وسهم تلقى معمول لهم جميعا عمليات « طربنة » من ضربهم فى
بعض بالنبايت .

فصادقت برأسى على قوله ثم زدت :

— وأنبوب ؟

— ألن !

قالها فى إشارة من يده أضحكتنى وذكرتنى بشيء قرأته عن هذه
البلدة : إحصائية صدرت فى أوربا أو أمريكا (لست أذكر على التحقيق)
غرضها بيان الإجرام فى العالم ؛ ورد فيها أن « شيكاجو » أكثر بلاد الأرض
فى عدد جرائمها ، وتليها مباشرة « أنبوب » وبعدهما بقية مدن العالم
الشهيرة . وقد حسيت وقتئذ أن « أنبوب » هذه مدينة فى أمريكا ، لولا
ملحوظة فى هامش الإحصائية ذكرت أنها من بلاد الوجه القبلى بالقطر
المصرى . دهشت عند ذلك أن تكون لهذه البلدة الصغيرة هذا المقام العظيم
بين مدن الدنيا الشهيرة ، وإن كان هذا المقام فى عالم الإجرام !!
« شيكاجو » و « أنبوب » قطبا الغريزة السفلى على هذه الأرض . الأولى
إجرام الحضارة ! والثانية إجرام البداوة ! كل له طابعه ومميزاته : إجرام
الحضارة قد ارتدى هو أيضا ثوب الحضارة بأسلحتها وأغراضها وأسبابها !
هنالك الجريمة المتحضرة تخرج فى سيارتها المصفحة حاملة « المسدسات »
و « المتراليزات » و « الفرقعات » لتهمجم على أضخم « البنوك » وبيوت
المال ثم تعود إلى مكمنها بثروات طائلة من الجنهيات ! .. وهنا الجريمة
الفطرية تخرج متدثرة فى عباءتها حاملة دراوتها أو فأسها أو بندقيتها لتسفك
دم رجل ضعيف انتقاما لِعرض أُهين فى نظر التقاليد والعادات . هنالك

— ١٤٣ —

الثروة والمال ، وهنا التقاليد والعادات . هذا هو الفرق بين الحضارة
والفطرة بين ما يشغل بال الرجل المتحضر وما يشغل بال الرجل المناخر !
نعم ، إن الشر هو دائما الشر . ولكن الشر الناتج عن سبب كبير لأجدر
بالتقدير من شر نشأ عن سبب تافه حقير ! إن الحضارة العظيمة لا تزيل
الشر ولا تمحو الجريمة ، ولكنها توجد الشر العظيم والجريمة العظيمة !
والتفتُ إلى زميلي المطرق وقلت له :

— أنا روحى طالعت خلاص ! زهقت من حاجة اسمها أرياف ! زهقت
من أصناف « اللبد » !

— ازهق على كيفك !

— أنا اشتقت لمصر ! نسيت شكل عاصمة بلادى ، أحب يا ناس أغير
نوع الجريمة ، وأشتغل مع مجرمين لأبسين سترة وبنطلون !

— حركة التنقلات فى نوفمبر .

— أظن على الدور أنتقل لمصر .

— النقل لمصر مش بالدور يا حبيبى عندك واسطة ؟

— لأ .

— حاتعيش وتموت فى الأرياف .

— وإخواننا اللي قاعدين متمتعين فى مصر بقى لهم سنين ؟

— تشملهم كذلك حركة التنقلات ، لكن على الوجه المفهوم وعلى

الطريقة المعتادة : وكييل نيابة الموسيقى ينقل إلى نيابة الأزبكية . ووكيل

شبرا إلى نيابة الخليفة . ووكيل السيدة زينب إلى كلية مصر ؛ يعنى تنقلات ،

مع مراعاة عدم خروجهم من « اللجنة » أى الناصبة . ومع ذلك تجد

حضراتهم غير راضيين ؛ لأن بعضهم يقول لك : « شبرا ! يا سلام شبرا

بعيدة جدا جدا عن بيتي في الزمالك ، ، والآخر يقول لك : « ازاي أروح نيابة السيدة ١٢ حتى ديمقراطي قوى !! » ، أما حضرتك وحضرتي ، فأنت إن شاء الله من هنا إلى « الفشن » من غير كلام . وأنا من طنطا إلى « طما » أو « منفلوط » من غير كلام . وإن فتحت واحد منا فمه بالشكوى أو الاحتجاج هبوا فينا : « إيه دلع أعضاء النيابة ده ! تفضلوا روحوا نياباتكم بلا دلع !! » .

فأطرقت طوليلًا في حزن وغم ، ولم أجد في يدي غير التمسك بالصبر حتى لا أضيف على بلائي بلاء وقلت متنها :

— أمرنا الله ! لنا رب ! لكن ده شيء يصد النفس عن الشغل . . .
لفظات ذلك لما وقعت عيني على أكرام الأوراق التي لا بد من إنجاز التصرف فيها فأحسست أن رغبتني في العمل قد فترت . فقال صديقي :
— الشغل . . . هو آخر شيء يهم أسيادنا الرؤساء الكبار ! المحسوبة أولاً ، ومصلحة العمل أخيراً ، وكون نفس حضرتك تنسد أو تفتح للشغل مسألة غير مهومة بالمرّة ولا مهمة بالمرّة عند أسيادنا الكبار !
ونظر الزميل في ساعته ثم نهض سريعاً مستأذناً فأمسكت به في طرفة ،
ففي وجودنا معا وتقليب ذكرياتنا بعض الراحة والعزاء :

— اقعد ! انت رايح تغدي عندي النهارده !

— مستحيل ! نيابتي فاضية ووقت مولد أرجوك تسامحني . . .

وشكر لي ومد إلي يده وودعني بسرعة وهو يقول مشيراً إلى ملفات الشكاوى التي جاء بها :

— على الله نفسك تفتح على الكم ورقة الهدية . . . ويبقى لك عندي

المرّة الجاية الحلاوة ... حلاوة بصحيح : حمضية وسمسمية وبالجزوز واللوز
والفستق و ...

— طيب رُح بقى ، ريتى جرى مقدا ...

وشيعته باسما إلى باب حجرتى حتى اخفضى فرجعت إلى ما كنت فيه
ولكن فى شىء من التناقل والضيق والكآبة ، وألقيت نظرة أخرى على
« الشكاوى » ورأيت أن أمضى فى عملى وأن لا أضيع الوقت فى تبرم لا
فائدة منه ، لا يشعر به أحد ولا يراه أحد غير تلك الحيطان الأربعة التى
تجس روى وأنفاسى وأمسكت بالقلم ، وتناولت من الكوم ملفا
وفتحته . وقرأت : « يا ملاذ العدل ... » فماتالكت أن ضحكت بصوت
مرتفع ضحكة مُرّة .. أنا ملاذ العدل ؟ أين هو العدل ؟ إني لا أعرفه ولم أراه .
لأن أحدا لم يعطنيه ! إنهم يطلبون إلى أن أنظر فى شكاوى الناس ولا
يتنازلون هم إلى النظر فى شكاوى وشكوى المثات من زملائى ! وأجريت
القلم فى الأوراق أوسعها « حفظا » ! ودخل على عبد المصمود أفندى
يحمل ملفات ضخمة فقلت مرتاعا :

— إيه كل ده ؟

— الجُنج الباقية على التصرف ..

ثم التفت خلفه ونادى الحاجب :

— هات الجنائيات يا جدع !

ونظر إلى قائلا :

— حانصل إيه فى الجنائيات الباقية ... ؟

ووضع أسامى ملفات قرأت على خلاف أحدها : قضية « قمر الدولة

علوان » . فتذكرت أن الفاعل فى هذه القضية لم يُعرف .. لم يُعرف ،

طبعاً لم يُعرف ولن يُعرف . وكيف يراد منا أن نعرف متهماً في قضية غامضة كهذه القضية وكل من المأمور والبوليس « ملبوخ » من رأسه إلى قدمه في تزييف الانتخاب ، وأنا « ملبوخ » في قراءة شكاوى وجنح ومخالفات وحضور جلسات ! لو أن لدينا « بوليس سرى » على النظام الحديث ، وقاضى « تحقيق » ينقطع لقضايا الجنايات كما هو الحال في أوروبا والعالم المتحضر ! إنهم هناك ينظرون إلى أرواح الناس بعين الجسد . أما هنا فلا أحد يأخذ ذلك على سبيل الجسد . وإن الأموال لتنفق هنا بسخاء في التافه من الأمور ، وأما إذا طلبت لإقامة العدل أو تحسين حال الشعب فإنها تصبح عزيزة شحيحة تقبض عليها الأكف المرتجفة كأنها ستلقى في البحر هباء . ذلك أن « العدل » و « الشعب » ... إلخ إلخ . كلمات لم يزل معناها غامضاً عن العقول في هذا البلد . كلمات كل مهمتها أن تكتب على الورق وتلقى في الخطب كغيرها من الألفاظ والصفات المعنوية التي لا يحس لها وجود حقيقى ، فلماذا ينتظر منى أنا أن آخذ على سبيل الجسد روح « سى قمر الدولة علوان »؟! إن هذا المجنى عليه قد مات وانتهى مثل غيره من مئات المجنى عليهم في هذا المركز والمراكز الأخرى في القطر ، ذهب دمهم جميعاً أرخص من المداد الذى حبرت به محاضر قضاياهم ، وانتهى ذكرهم عندنا « رسمياً » بذلك الإجراء الأخير البسيط : « تحفظ القضية لعدم معرفة الفاعل ويكتب للمركز باستمرار البحث والتحري » فيجيب المركز بعبارة مألوفة محفوظة يحررها كاتب الضبط في حركة آلية وهو يقضيم « شرش جزر » : « جارين البحث والتحري ... » وهى كلمة الوداع التى تقبر بها القضية نهائياً . لقد كان في قضية قمر الدولة « قمر » مفضىء ميز في أعيننا هذه القضية عن غيرها وسحب إلينا العمل والجهد

في سبيلها . ولقد اختفى هذا القمر إلى الأبد وترك القضية ومحققها في الظلام ! بل إنه بذهابه قد زال عنها ذلك الاعتبار الخاص فأصبحت قضية عادية كمئات القضايا التي لا يعنينا من أمر أشخاصها شيء . وللقضية ، أى لذلك « الملف » المادى من الورق المكتوب « شخصية » قائمة بذاتها في نظر رجال العدل . وإن ما يعنى جهاتنا الرئيسية هو ذلك « الملف » وسرعة التصرف فيه . وإنه لن يعيننا شيء إذا حفظنا القضية ، ولكن العيب كل العيب أن تظل هذه القضية باقية قيد التصرف ويثبت ذلك في « الكشوف » المرسلة إلى النائب العام والوزارة آخر السنة القضائية .

أى عار عند ذلك وأى إهمال ينسبان إلى وكيل النيابة ؟! وأى مكاتبات مستعجلة تسقط على رأسه من جميع الجهات عن سبب بقاء هذه القضية قيد التصرف ؟ فإذا أجاب بأنه لم يستوف بعد أبحاثه فيها للوصول إلى معرفة الفاعل وأنه مواصل بحثه ومصر عليه لا يعتبر ذلك عذرا ، وسفهه زملائه وحسبوه « غشيما » ونصحوه بأن « يحفظ » القضية « مؤقتا » حتى تعتبر « متصرفا فيها » ، فالجهات العليا يهملها ويطمئننها « التصرف » في القضايا ، أى « نفض » اليد والفراغ منها على أى صورة وعلى أى وجه ، حتى تستطيع تلك الجهات أن تدون في الإحصائيات : « وقع في القطر هذا العام عدد كذا جنائيات تم التصرف في عدد كذا منها ... إلخ » . وكلما كان عدد القضايا التي تم فيها التصرف كبيرا كان ذلك دليلا ناصعا على نشاط رجال العدل وغيرتهم على استتباب الأمن وحسن سير الدولاب الحكومى !!

وأشار عبد المقصود أفندى إلى الملفات وقال :

... قبل كل شيء يا سعادة البك تصرف لنا في الكم جناية الباقيين لأجل أسدد كشف الجنائيات وأصدره للباشا النائب والوزارة ! ...

— ١٤٨ —

— بس كده؟ حاضر!
وغمست القلم في المداد وتناولت القضية الأولى وهى قضية
« قمر الدولة » :

— طالب تصرف ، خذ تصرف !
ثم كتبت في ذيل المحضر الإشارة المعهودة :
« تحفظ القضية لعدم معرفة الفاعل ... إلخ إلخ » . وسحبت
« الجنائيات » الأخرى وفعلت بها مثل ذلك وناولتها رئيس القلم الجنائى وأنا
أقول له فى نبرة خرجت ساخرة مريرة على الرغم منى :
— مبسوط ! أدحننا خلاص سددنا كشف الجنائيات !

انتهى

يوميات نائب في الأرياف في نظر النقاد الأوروبيين

تحت عنوان « نائب في ريف مصر » علق الكاتب الصحفي الفرنسي المشهور « جان لا كوثير » على الطبعة الأخيرة من الترجمة الفرنسية لـ « يوميات نائب في الأرياف » في باريس ... في مقال نشرته صحيفة « الموند » بتاريخ ١٥ يناير ١٩٧٥ ... قال :

في توفيق الحكيم يتغلب الكاتب القصصي والشاهد قوى الملاحظة ، خفيف الروح ، مع أقدم مدنية قامت على الزراعة ... والكتاب هو تحفته التي أخرجتها دار مصرية للنشر منذ ثلاثين عاما ، يقدمه « جاستون ويت » و « سليم حسن » في الثوب الأنيق المعهود وبمعنوان « يوميات نائب في الأرياف » ... لكن بعد شيء من التعديل ... لست أدري لماذا؟! على أن مدير النشر « جان مالورى » كان موفقا تماما عندما نشره في مجموعة الإنسانيات ليجاور توفيق الحكيم خلاصة الكتاب الذين كتبوا في هذا المجال ... فالكتاب هو قبل كل شيء وثيقة « انثروبولوجية » عظيمة ... وصورة من أكثر الصور أمانة ، وأبلغها تأثيرا ، لمجتمع القرية في مصر ... بسيئاته ومباهجه ... بحماقاته وروح التكافل التي تثير الإعجاب فيه ... خلافاته وتماسكه ... وإخلاصه لكل هذه السمات فيه من زمن بعيد ...

ولأن توفيق الحكيم متفائل في سخريته ، ولأن مصريته من العمق بحيث يمكنه أن يجد في أقسى صور الشقاء أسبابا للضحك ، فإن يومياته هذه يمكن أن تعتبر من الأدب الفكاهي الممتاز ... إنها تذكرنا بأعمال « تشيكوف » و « جوجول » . تحقيقاته الجنائية من قرية إلى قرية هي مزيج من النكتة

وتقطيب الوجه ... وأحيانا ضربات العصا ... روح الفكاهة طبع
أصيل ... والتعليق اللاذع أسرع من رد الطرف !
في أغوار شقائهم يبدأ أولئك الناس البسطاء بالضحك من معذبيهم ...
وقبل أن يتناولوا الحبل الذى سيشنقونهم به ! . فإذا ضحكنا معهم ، ومع
المؤلف ... وطوينا الكتاب ... فإننا نأخذ نستشعر شحنة الغضب
والرفض التى ضمنها النائب توفيق وثيقته !

الكتاب مؤلم ... بما يذكره صراحة وما يترك لك أن تفهمه ... كذلك
المقدمة القصيرة التى كتبها المؤلف لهذه الطبعة الأخيرة « وهو قد كتبه
عام ١٩٤٠ » وحيث يقول إن شيئاً لم يتغير بعد لدرجة تذكر فى ذلك العالم
الغارق فى الوحل ... حتى الاختناق ! . والكتاب هام جداً لأن الكثير فى
مصر ، وعن الحقيقة ، تجسده فى تلك اليوميات الحية أكثر كثيراً مما يمكن أن
تجده فى كتب سياسية تصدر عن ذلك الشعب الفريد فى وادى النيل ...
والذى يبدأ عادة بالضحك من مصائبه لكنه فى النهاية يجد الوسيلة التى
يستردها الحياة !

مقتطفات من النقد الإنجليزى :

« ... يعتبر « توفيق الحكيم » أكبر الروائيين المصريين الأحياء .
و « يوميات نائب فى الأرياف » هو أول كتبه التى نقلت ونشرت فى اللغة
الإنجليزية . ما أعجب وأصدق كل هذا الذى فى الكتاب ! ...
« إنها المهزلة الخالدة التى تصور فساد الأداة الحكومية وعجز النظم
الإدارية عن تحقيق العدالة بين جموع الفلاحين . إن تصوير توفيق الحكيم
لرجال الإدارة وانشغالهم بالحملة الانتخابية عن واجبهم لينطوى على أكثر

من مجرد الاستنكار ... وإن في تصويره للعبث بالجنث لأكثر من مجرد الاحتجاج . وكما حدث في القرن التاسع عشر مع الكتاب الروس ، وكما حدث مع كاتبنا الإنجليزي « ديكنز » يشعر الأديب مرهف الحس وسط الاضطراب وفي أجواء الظلم أن الشفقة على المظلومين لا تكفي ، وأن الغضب على الظالمين لا يجدي ، فيتخذ من السخرية اللاذعة سلاحا لتحقيق ما يهدف إليه من التنبيه والتحذير والإصلاح . وقد كان توفيق الحكيم في هذه الناحية رائعا ، فقد زخر كتابه بالسخرية اللاذعة ولكنها سخرية اتخذ منها سلاحا للهجوم ... »

(ب . هـ . نيوباي)

مجلة « ذى لسنر » ٧ أغسطس سنة ١٩٤٧

« ... » يوميات نائب في الأرياف « ترينا الفقر والظلم في الريف المصرى وما يلقاه أبناءه من عنت وعسف من جانب الإدارة بسبب تطبيق نظم لم تراع عند وضعها أحوالهم وظروفهم ، صيغت في قالب ذكريات موظف حكومى مصرى يعمل في سلك القضاء . إن المرارة والسخرية التى رسم بهما توفيق الحكيم هذه الصور لا يمكن أن تنسى . »

(د . س . سافاج)

مجلة « سبكتاتور » ١٨ يوليو سنة ١٩٤٧

مقتطفات من النقد الفرنسى :

« ... هو ديكنز وادى النيل ... بل هو « كورتلين » أيضا . لأن روح الفكاهة في تصوير مجالس القضاء تجدها عنده كثيرة بطرق متنوعة ... فالكتاب مليء بالصور المرسومة بريشة السخرية ، والمأساة فيه رابضة

في جو مفعم بالأسرار . على أن الأشخاص الشعبيين ومن يعيش في محيطهم من آدميين هم الذين عنى المؤلف بخلقهم خلقا نابضا مؤثرا ... إن « كورتلين » المصري ، وهو — والحق يقال — أعمق شاعرية من كاتبنا الفرنسي ، يثور لهذه الفوضى التي نتجت في الريف المصري ، وإن توفيق الحكيم قد استخرج من كل ذلك الحجج التي تحتم الإصلاح .
« وهذه ليست كل صفات هذا الكاتب الذي يعتبر ممثلا لأدب مصر المعاصرة » .

(أندريه روسو)

« فرنسيس المستراسيون » ٢٩ أبريل سنة ١٩٥٠

* * *

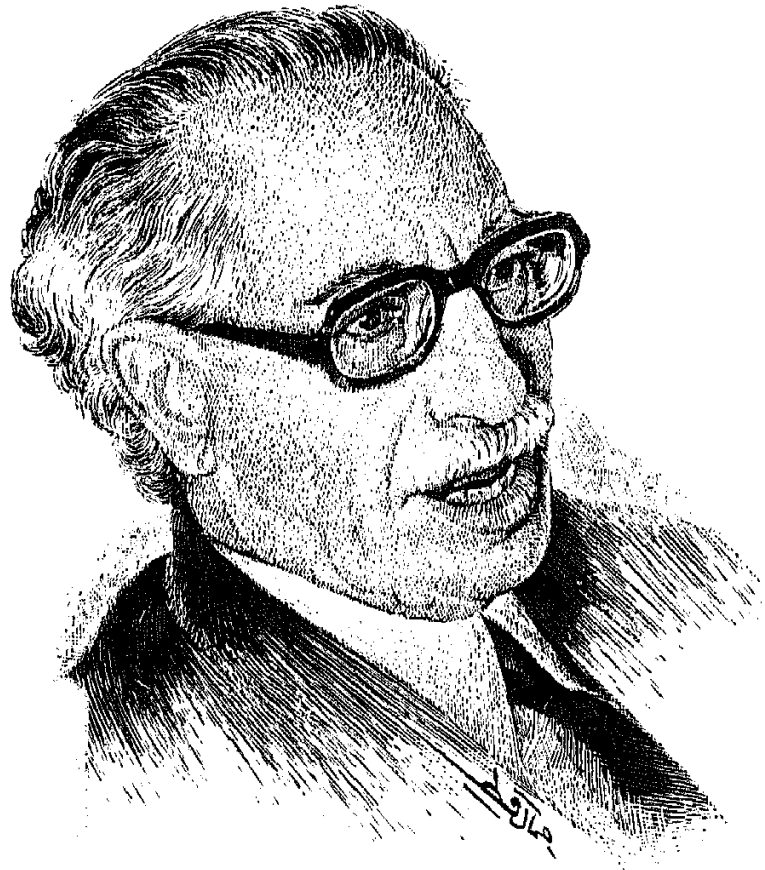
« ... إنها صورة حية ، ساخرة ، قاسية أحيانا لدنيا الريف المصري ...
وإن هذه الدنيا لتتحرك في صفحات هذا الكتاب في حيوية مدهشة تجعل القارئ ينسى أحيانا المقاصد الإصلاحية التي حركت توفيق الحكيم ...
فإن الذي يعلق بذاكرة القارئ هو قوة السرد والخلق والإبراز والصدق ودقة الملاحظة والقدرة في إدارة القصة ، على أن توفيق الحكيم إنما يكتب ليحتج وينقد ويتهم » .

(رمون فرنانديز)

جريدة « ماريان » ٩ أغسطس سنة ١٩٣٩

رقم الإيداع : ٨٨/١٩٢٨

الترقيم الدولي : ٨ - ٠٣٥٩ - ١١ - ٩٧٧



دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه